لواحق المقتطف الشهرية
يونيو ١٩٤٦

موسكو
برلين لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم
عصام الدين حفني ناصف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

الثورة البلشفية

وحرب التدخل

كان الناس من قديم يشكون الجهل والخوف والفاقة والعبودية ، ويتلمسون قبساً من النور يبدّدون به ما يكتنف حياتهم الاجتماعية — الاقتصادية من ظلام . وكان مفكروهم يحلُمون بمجيء عهد فيه تفيض الأرض بالخيرات ويخف فيه عناء العمل ويَسعَد الناسُ بالرفاهة والهناءة والأمن ، فلما بدا أولَ مرة في تاريخ البشر أن تحقيق هذا الحُلم اللذيذ أصبح في متناول اليد فزع خفافيش الناس وهبّوا يُعولون ويولولون وينادون بالويل والثبور، ويُهيبون ببني جنسهم أن هذا الذي يحسبونه نوراً وهاجاً ليس إلاّ ناراً حِراقاً . وتآزرت مصالح الرأسماليين ونفعية السياسيين المحترفين وفساد ذمم الصحفيين وتعصب رجال الدين ، وتضافرت مع كل أولئك شتى عناصر الشر على أن تبلبل أذهان الشعوب وتغشى على أبصارها بغشاوة الجهل المطبق والتعصب الذميم ليظلّ أبناؤها مستكينين لاسُخرة يديرون طواحين السادة المالكين ، فيظل السادة ينعَمون بما تدرّه عليهم من الخيرات .

ضاق الشعب الروسي ذرعاً بمفاسد قيصره وأمرائه الطغاة وأغنيائه السادرين في غَوايتهم فأطاحهم وأطاح حكومتهم الفاسدة المتعفنة . وشكل كِرنسكي حكومة ديمقراطية عاجزة ما عتّم الروس أن علموا أنها ألعوبة في يد بعض الدول وأنه ليس في عزمها ولا في مقدورها أن تنتشلهم من وهدة الحرب وأن تحبُوَهم السلامَ والخير ، فهبّوا في وجهها . وسَرعان ما برزت من خلال دخان المدافع شخصية زعيم منقطع النظير ، وأعلنت روسيا أنها قد رضيت لنفسها الشيوعية نظاماً . فإذا بالفريقين المتقاتلَين يتألّبان عليها وقد أعماها الحقد والفزع ، فاندفع جنودهما يفتكون ويقتلون ويحرقون . وقد أجزلا الأموال والأسلحة والأوسمة للعناصر الرجعية والقواد القيصريين من أمثال دِنكين وكُلتشاك ويودِنتْش وفرَنْجل ليعيدوا سلطان الحكم القيصري . وهبّت جيوش الحلفاء

مُـرْمَـنْـسك وتوغلت كتائب اليابانيين في شرق سيبرْيا حتى بحيرة بَـيْـكال ، وأرسلت فنلاندا ، التي منحتها حكومة السوفييت استقلالها ، تدعو ألمانيا في مارس ١٩١٨ أن ترسل جيشاً الى أراضيها ليزحف منها في سهوله الى الاتحادُ السوفييتي فيَـقمع ثورته ، فاتصل القائد الألماني فون دِرْجُـوتـْـز بالجنرال مَـنَـرْهايم ، وزحفت جحافل الهون على أكرانيا ، وافتتحت كييف وأُدِسّـا . وعانى الشعب السوفييتي من الحلفـاء ودول وسط أوربا ما لا سبيلَ الى توفيته حقه من الوصف . وقد قُـوِّم ما أصـاب مناحي الثروة في بلاد السوفييت من الخسائر بما لا يقل عن ٤٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ من الجنيهات . وناهيك بما انتزعه الحلفاء منها من الولايات الهامة مثل إستونيا ولاتفيا ولتوانيا ، التي جعلوا منها دويلات البلطيق ، والجزء من أكرانيا وروسيا البيضاء الذي أدمجوه في بولونيا ليجعلوا منها دولة كبيرة عدد أفرادها ٣٥ مليونا (بعد أن كان ١٥ مليونا) وبسارابيا التي ألحقوها برومانيا : ذلك الحبل من الدويلات التي خلقوها من العدم ليضيّـقوا به الخناق على الاتحاد السوفييتي حربيّـا وتجاريّـا وسياسيّـا أو التي أسماها كليمنسو في وقاحة كلبية « الحاجز دون الوباء »
cordon sanitaire

وعرَف البلاشفة الثائرون كيف يوقِعون الهزيمة بأعدائهم « البِيض » مرة بعد أخرى . وطالت « حرب التدخّـل » وضجّـت شعوب الحلفاء من أعمال حكوماتها وجأرت بالشكوى من تخلّـف أبنائها المجنّـدين عن العودة الى أوطانهم ، وامتنع حمّـالو ميناء لندن من شحن الذخائر الى بولونيا ، وقام العمال بسلسلة من الاعتصابات وهدّدوا بالإضراب العام ، فلم يبق أمام الحلفاء إلاّ أن يُسرّحوا جنودهم وهكذا انتهت الحرب العسكرية . ولـكن المهاجمات العَـدائية لم تنقطع ، وقد صرّح لويد جورج رأس الحـكومة في ذلك الوقت بأن دولتـه قد بذلت من المال والجهد لتأييد النظام القيصري على الثورة الشيوعية أكثر مما بذل غيرها من الدول .

فماذا كانت نتيجة هذه المحاولة ؟ لقد أُحصِي بعضُ ما خرب في جبهـات القتال البالغ طولها ١٠٠٠ كيلومتر ، فاذا هو يشمل ٣٦٠٠ جسر عاديّ و ٣٦٧٠ جسر من جسور السكك الحديدية و ٤٣٠٠ محطة تلغرافيـة و ٨٧٠٠٠ ميل من الأسلاك البرقيـة . ونقصت مساحة

الأراضي التي زرعت حبوباً سنة ١٩٢٠ — ٢٣ في المائة عما كانت عليه سنة ١٩١٦ ، ومساحة الأراضي التي زرعت قطناً وتبغاً وما الى ذلك ٥٦ في المائة ، وهبط محصول الفدان الى ٧٠ في المائة عن محصوله قبل الحرب . أما الصناعة فقد تقهقرت كثيراً إذ هبط صُنع الزُبد من ١٠٠ في المائة سنة ١٩١٣ الى ٧٧ في المائة سنة ١٩١٧ الى ١٨ في المائة سنة ١٩٢٠

يمكن تلخيص هذه الخسائر على النحو الآتي : نزلت المحصولات الزراعية في آخر الحرب العالمية الأولى الى ٨٨ في المائة عما كانت عليه قبل الحرب ثم نزلت في آخر الحرب الأهلية الى ٦٢ في المائة . وهبطت الصناعة الى ٧٧ في المائة في آخر الحرب العظمى ثم الى ١٨ في المائة في آخر الحرب الأهلية .

الاتحاد السوفييتي يستجم

كان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته يَنشُد السلام ، ويرغب في التعمير لا في التدمير ، وقد خرج من الحرب العالمية والحرب الأهلية والمجاعة أكثرَ حرصاً على السلم وأقوى تمسكاً به إذ أصبح عليه أن ينظف بلاده من أنقاض الهدم وأن يحوّلها من مجموعة مزارعَ سيئة الادارة الى دولة صناعية حديثة وأن يشيّد مدناً عظيمة ذاتَ مساكنَ صحية مبهجة ومنشآت عامة فأعلن أساطين الحكم البلشفي أنهم لا يريدون « قيد بوصة من إقليم خارجي » وأن دولتهم تبغي أن تعيش مع الدول الرأسمالية في وئام وأنهم راغبون عن فرض نظامهم على أي شعب راغب عنه ، إذ أنهم يعتقدون أن الثورة لا تُفلح في بلد حتى تتهيأ فيه عواملها وملابساتها ، ولا يكون هذا التهيؤ إلاّ عن تطور في حياة هذا الشعب . قال لنين في حديث له مع آرثر رنسوم عن الدعاية الشيوعية في البلدان الأجنبية « قل لهم أن يجعلوا على كل بلد من بلادهم سوراً كسور الصين وأن يسخّروا مَن عندهم من عمال الجمارك والحدود وخفراء السواحل وأن ينفوا مَن شاءوا من البلاشفة . إن نشوب الثورات لا يقوم على الدعاية ، وليس ثمة ضربٌ من ضروب الدعاية يستطيع أن يعجل قيام ثورة لم تتوافر عواملها ولا أن يؤخرها إذا توافرت لها تلك العوامل » .

انتهت الفترة الأولى من تاريخ ا.ج.س.ا. (اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية

U. S. S. R. (Union of Soviet Socialist Republics) وهي فترة حرب التدخل (١٩١٧ ـ ١٩٢٢) عند ما زايلت الجنود اليابانية ميناء فلاديفُستُك في أكتوبر ١٩٢٢ ، وانتهت معها شيوعية الحرب ، أي سياسة تخصيص كل ما في الدولة من الممتلكات والمرافق الاقتصادية لكسب الحرب دون نظر إلى أثر ذلك في الأفراد المالكين لها أو المنتفعين بها. واستبان للبلاشفة ضرورة تجميع بعض المواد الاحتياطية في يدي الدولة لكي يكون الإنتاج في الصناعة على نطاق متسع المدى يسمح بتجهيز الجيش بالعدة وتزويد الزراعة بالآلات اللازمة لادارتها طبقاً للنظام الاشتراكي ، فأعلنوا السياسة الاقتصادية الحديثة ، N. E. P. (New Economic Policy) ومنحوا أصحاب رؤوس الأموال الأجانب بعض الامتيازات موقتاً واستعانوا بالخبراء الأجانب على اختلاف أجناسهم ولم يضنوا بالأثمان المرتفعة في شراء الآلات من الخارج ، حتى زعم البعض أن هذه السياسة إن هي إلاّ عودة إلى الرأسمالية . وقد احتفظ الاتحاد السوفييتي بالهدوء المستمر إزاء ما كانوا يرمَون به في الصحف ومن فوق المنابر من الشتم البذيء المستمر .

بيد أن ذلك لم يطفىء لظى السخيمة المتأججة في صدور الدول الأخرى ، فبينما اعترفت الحكومة البريطانية بالحكومة المؤقتة التي وليت الحكم بعد انهيار الحكم القيصري في روسيا ولما يمض على قيامها أسبوع واحد ، إذ مرت سبع سنوات قبل أن ترسل حكومة العمال البريطانية الى الاتحاد السوفييتي سفيراً (غير مزود بسلطة كاملة) ومع ذلك فإن هذه الحكومة القصيرة الأجل لم تكد تسقط من فوق منصة الحكم نتيجة للرسالة المزورة التي استعملها خصومها لإثبات تدخل الكومنترن Commintern (مكتب الدولية الشيوعية Communist International) في بعض الشؤون البريطانية ، حتى خلفتها وزارة من المحافظين أوشكت أن تقطع العلاقات بين الدولتين . وكان ممثلو الاتحاد السوفييتي يعاملون أينما ساروا معاملة الأعداء ، فاغتيل ڤويكوف سفيره في بولونيا ، اغتالوه في جنيف ، وقتل اليابانيون موظفاً من موظفي السكة الحديدية بمنشوريا ، ونهبت دار البعثة السوفييتية في شنجهاي ، وأخذت شتى الحكومات ترسل الى الاتحاد السوفييتي إنذاراتها ، بل إن بعضها قطع علاقته به ولم يعد الى وصلها إلاّ خضوعاً للرأي العام .

في سنة ١٩٢٢ أعلن وزير بريطانيا الى الوفد السوفييتي في المؤتمر المجتمع في جنوا للنظر في تعمير ما خربته الحرب ، أن دولتهم تستطيع أن تظفر بالمعونة التي ترغب فيها لتعمر ما أتلفته الحرب والحرب الأهلية ، على أن تتخلى عن خطتها الاشتراكية وعلى أن تعيد اليها الرأسمالية . وهنا أثبت ساسة السوفييت مقدرتهم على الانتفاع بما بين مصالح الدول الرأسمالية من تباين وتضارب في تقوية مركزهم ، فقد استطاع تشيشرين أن يتفق مع مندوبي ألمانيا وأن يعقد معهم معاهدة رابالّو التي تقرر فيها إعادة العلاقات السياسية كاملة وإعادة العلاقات التجارية المشْرَبة بروح الود بين الدولتين ، فكان لذلك أثر ملموس في القضاء على التدخل . وقد أثار إمضاء تلك المعاهدة في صفوف الحلفاء من السخط والشعور بالمرارة ما أثاره إمضاء ميثاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا بعد ذلك بـ ١٧ سنة .

وفي سنة ١٩٢٣ أرسل مركيز كرزون الى الاتحاد السوفييتي إنذاراً في مسائل تتعلق بصيد السمك وما اليه من أمور قليلة الخطر .

وكثر التهديد في سنة ١٩٢٤ عند ما خط رمزي ماكدونالد كلمة فوق الرسالة الحمراء المزورة (وإن مزوري الخطوط ليجدون دائماً في أركان وزارتي الخارجية والداخلية سوقاً نافقة لوثائقهم المزورة)

وأفاض سير وليم هكس في الحديث عن « الخطر الأحمر » ثم جرّد حملة من الشرطة على وكالة السوفييت التجارية « أركوس » مما أدى الى انفصال العلاقات السياسية ، وهذا ما يكون في كثير من الأحيان نذيراً بالحرب . وفي الحق أن هذه الإغارة كانت بمثابة إعلان بعزل الاتحاد السوفييتي وتأليب الدول لمقاتلته .

وفي سنة ١٩٢٥ بعد أن قضى وزير الخارجية البريطانية سير أوستن تشمبرلن شهر العسل في البحر المتوسط مع بنيتو موسوليني، عقدت معاهدة لوكارنو، فهللوا لها على أنها ضمان للسلم بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبولونيا وتشكوسلوفاكيا وبلجيكا . ضمانٌ من مَن ؟ هذا ما أجاب عليه مستر أورمسبي جور (لورد هارْلِش) إذ قال في حديث له : « إن تضامن المتمدنين بالمدنية المسيحية ضرورة لإيقاف أعظم نمو مشئوم ارتفع في تاريخ

أوربا . . . وقد كان النضال في لوكارنو ، في رأيي، هو هذا : هل ترى ألمانيا أن مستقبلها مرتبط بمصير الدول الغربية العظمى ، أم هي سائرة في طريق العمل مع روسيا لتدمير المدنية الغربية . . . إن لوكارنو تعني أن المانيا ، ما دام أمرها بيد هـذه الحكومة ، قد تخلت عن روسيا وألقت بحظهـا مع الفريق الغربي » .

وفي سنة ١٩٢٧ تحـدَّث سير أوستن تشمبرلن (والد نفيل تشمبرلن) بلهجة إنذارية حادَّة عن صورة كاريكاتورية نشرتها صحيفة سوفييتية ورأى فيها غضـًّا من مقامه الموقـَّر .

وفي سنة ١٩٢٩ قام المارشال الصيني تو ـ تشون حاكم منشوريا بالهجوم على حدود الاتحاد السوفييتي . فأرسـل الوزير الأمريكي ستمْسُن مذكرة الى فرنسا لتخاطب الحكومة السوفييتية في شأن سكة حديد منشوريا التي تُـعد « مصلحة أممية » (لم يكن يستطيع مخاطبة ا.ج.س.ا. رأساً لأن العلاقات السياسية بين الدولتين كانت مقطوعة) ، فلما نكَّـل البلاشفة بالجيش المعتدي وألحقوا به هزيمة نكراء ، سحب الوزير الأمريكي أنفه من الموضوع .

وفي سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ استولى اليابانيون على منشوريا ، فلم يزل سير جون سيمون وزير خارجية بريطانيا ، بعصـبة الأمم حتى أغضت عن ذلك الاعتداء ، مما جعلها تذوي وتزدهف نحو الفناء ، وجعل شركات صنع الأسـلحة تنتعش إذ توقعت أن يؤدي استيلاء اليابان على منشوريا الى غزوها ولايات الشرق الأقصى السوفييتية .

وفي سنة ١٩٣٣ هاج هائج هذه الوزارة القومية إذ ألقت الحكومة السوفييتية القبض على بعض المهندسين البريطانيين لأنهم كانوا يتجسسون في بلادها ويخرّبون ، كما جاء على لسان واحد منهم ، وطالبت باخلائهم ، في لهجة أشبه شيء بتلك التي تخاطب بها مشايخ القبائل في مناطق نفوذها ، فلما أعرضت الحكومة السوفييتية عن تلبية طلبها شرعت هذه تقاطع تجارتها (على حين أنها لم تعمد الى شيء من ذلك عندما قبض اليابانيون بعد ٤ سنوات من ذلك الحادث على عدد من الرعايا البريطانيين وجرّدوا بعضاً منهم من سراويلهم على قارعة الطريق وضربوا الشرطة البريطانيين ضرباً مبرّحاً وعند ما حبسوا ملحقاً حربيـًّا بريطانيـًّا وصبّوا مقذوفات الرشاشات على سفير بريطاني وأطلقوا نيران مدافعهم على سفن يخفق عليها علم بريطانيا) .

ولكن الحكومة السوفييتية أبت أن تنساق لهذا الاستفزاز المستمر ، إذ كان عليها أن تجد « مُهلة تنفس » طويلة تستجمّ فيها ، مهما يكن الثمن ، وقد كان من حسن طالعها أن الدول المتاخمة لبلادها ، هي وغيرها من الدول ، كانت قد نهكتها الحرب حتى أصبح من خُرْق الرأي أن تخوض غمار حرب أخرى تتعرّض فيها لحرب بين الطبقات المختلفة في داخلها .

ظلت الدول المتحالفة بعد إخفاق حرب التدخل متألبة على الاتحاد السوفييتي ، بل إنها ما أنشأت عصبة الأمم إلاّ للقضاء عليه وعلى الامبراطوريات المنافسة لها ، وهذا ما أوضحه في مارس ١٩٣١ مستر لويد جورج الذي كان رأسَ الحكومة البريطانية وأبرزَ رجالات مؤتمر فرساي إذ قال في رسالة بعث بها الى ذلك المؤتمر « إذا أردنا أن نهب لأوربا بديلا من البلشفية وجب أن نجعل من عصبة الأمم حامياً للشعوب التي لديها استعدادٌ لمعاملة جيرانها معاملة منصفة ومهدداً لأولئك الذين يعتدون على حقوق جيرانهم ، سواء أكانوا أمبراطوريين استعماريين أم شيوعيين استعماريين » .

واستمرّ الرأسماليون الدوليون ، مع ما بين دولهم من تباغض وتحاسد ، يَحيكون مؤامرة عالمية ليُنزلوا بالشيوعية — قبل فوات الأوان — ضربة ساحقة ، قال ونستون تشرشل لمستر ا . ج . كوك : « لقد كان من الخير أن نهشمَ البيض البلشفيّ قبل أن يُفرخ بدل أن نجد أنفسنا مرغمين على الجد في اصطياد الفراخ البلشفية من جميع أصقاع الأرض »

كان الحلفاء قد طرحوا ألمانيا بعيداً عن عصبة الأمم وعاملوها معاملة المنبوذين . وناء الشعب الألماني بالأعباء التي ألقتها معاهدة فرساي على كاهله ، وأخذ يقتنع بأنه لا منجى له مما يكتنفه من البؤس إلاّ أن يتخذ الاشتراكية له نظاماً وأخذ ينجرف في تيار الصداقة السوفييتية والمبادىء البلشفية . على أن الحزب الشيوعي في ألمانيا كان حديث النشأة وكان يعوزه زعماء من طراز لنين ورفاقه . فأرسل البلاشفة اليه بعثة على رأسها كارل راديك لتقدم الى الثوريين الألمان ما هم في حاجة اليه من صالح المشورة ، ففزع الحلفاء وعملوا على إصلاح الخطأ الذي أوقعهم فيه قصر النظر ، فمدوا يد المعونة الى الرأسمالية الألمانية وأقرضوا ألمانيا قروضاً كبيرة . وقد وقعوا بذلك في مأزق ضيق لقُوا فيه القِصاص الطبيعي ، إذ أن إصلاح الاقتصاد الألماني أحيا مطامع الطبقة الحاكمة في ألمانيا ، فانتبذت هذه معاهدة فرساي وتبوّأت من جديد مركزها تحت الشمس .

أوربا الديمقراطية

تمالىء الفاشية

وحمل هتلر لواء الاستعمارية الألمانية الناقهة . وأخذ الناتسي بيده أعنـّة الحكم ، فملأ الطرب جوانح تشمبرلن ودلادييه ومن لفّ لفهما ، فقدكانوا يرون في الهتلرية حاجزاً منيعاً دون البلشفية ، وقد طرقت مسامعهم صيحات الناتسيين لانتزاع أكرانيا من الاتحاد السوفييتي وقصرت أبصارهم عن رؤية الحرب الناتسية المقبلة على بلادهم فهلّلوا لهتلر ومجّدوه، ومن ذلك ما كتبه لويد جورج في جريدة التيمس الصادرة في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ إذ يقول :
« إذا أفلحت الدول في محق الناتسية في المانيا ، فما الذي سيكون بعد ، إنه لن تكون ثمّ حكومة محافظة أو اشتراكية أو حكومة من الأحرار ، بل حكومة شيوعية متطرفة . ولا يمكن أن يكون هذا هو الغرض الذي ترمي اليه هذه الدول ولا ريب » .

تغير الموقف في أوربا تغيراً تامـّاً ، وكذلك تغير الموقف في الشرق الأقصى نتيجة لذلك ، فان اليابانيين الذين كانوا في حرب التدخل آخر من جلا عن الأراضي السوفييتية ، عثروا في ألمانيا على الحليف الذي كانوا ينشدونه ليكرهوا الاتحاد السوفييتي على القتال في جبهتين ، فتتابعت حوادث الحدود ، بين الفصائل اليابانية والسوفييتية ، وبدأت فترة الاعتداء . وأصبح من العبث أن تستمسك الحكومة السوفييتية بسياسة فترة ولّت وانقضت ، ولذلك استبدلت بسياسة مواثيق عدم الاعتداء الفردية سياسة مقاومةٍ جماعية تنتظم الدول المهدَّدة ، لأن السلم لا يتجزأ ، ونادى مكتب الدولية الشيوعية بـ « الجبهة الشعبية لمكافحة الفاشية وصون السلام » . وانتظم الاتحاد السوفييتي في سلك عصبة الأمم في سبتمبر ١٩٣٤ وأصبح مركز الثِّقل في عالم السياسة ، وبلغت السياسة السوفييتية في مسايرة الواقع والصلابة في الحق ورعاية أصول الخُلق الدولي شأواً بعيداً لا سبيل معه الى الموازنة بينها وبين سياسة غيرها من الدول ، تلك السياسة التي عبّدت لألمانيا السبيل الى شنّ الحرب .

تعطّف الاتحاد السوفييتي رداء عصبة الأمم وأدحض مفتريات النازية والفاشية وأوضح أنهما أعظم خطر يتهدد الحضارة ودعا إلى التدرع بـ (الضمان الجماعي من الاعتداء) فأبت الدول الرأسمالية أن تنظر الى الأمر من ناحيته الموضوعيـة ، وأخذ أعداء الثورة يصخبون بأن هذه الأحداث والتطورات إن هي إلاّ نُذُر شرٍّ بأحداث مشئومة .

ويحسن أن نذكر هنـا للدّلالة على الروح الذي كان يهيمن على تفكير ساسة الغرب ما أورده دُدْ سـفير أمريكا في برلين في مذكراته بتاريخ ٦ مايو ١٩٣٥ : « كتب إليّ لورد لوذيان في ذلك رسـالة تلقيتها اليوم . . . وقد أبدى في جلاء أنه يودّ أن تتحـد الديمقراطيات لصدّ أية حركة توجه نحوها ولتحويل اتجاه النشاط الألماني نحو الشرق . ويبدو أنه لا يكرُبه كثيراً أن يؤدي ذلك الى نشوب الحرب بين روسيا وألمانيا ، بل يبدو أنه يرى في نشوبها حلاًّ حسناً للمصاعب التي فرضتها معاهدة فرساي على ألمانيا . ومشكلة الديمقراطيات في رأيه هي أن تجد لليابان ولألمانيا مكاناً أمكن في إدارة شؤون العالم ، وهو ما تؤهلهما له قوتهما وتقاليدهما ، وهو يأمل أن يكون في الوسع القيام بذلك دون أن تبذل الامبراطورية البريطانية أية تضحية وبأقلّ ما يمكن من خنق الحرية الانسانية »

كان على رأس الوزارة البريطانيـة في ذلك الوقت سياسيّ صوّر له نظره القصـير أن أعين النازي مسددة نحو المشرق فبعث ذلك فيه الرضـا فقصّـر في تسليح بلاده ، منتظراً في بلادة واطمئنان أن تستعر نار الحرب بين ألمانيا والاتحـاد السوفييتي فيكفيانه أنفسهما بأهون الطرق ، بل إنه في الواقع أخـذ يمالىء دول المحور ويُغضي عن اعتداءاتها المتوالية وما فتىءَ يُـفسد آلة السلامة الجماعية ويقيم العقبات في سبيل الاتحاد السوفييتي كلما سعى الاتحاد الى صون السلام .

فعندما عقد الاتحاد السوفييتي وفرنسا في سنة ١٩٣٥ ميثاق التساعد على المعتدي وسجلتاه في عصبة الأمم أبت بريطانيـا أن تشارك في ذلك وحملت صحفها على الميثاق حملة منكرة .

وفي تلك السنة نفسها عقدت بريطانيا وألمانيا ميثاقاً خاصًّـا بأسطوليهما البحريين ، وأباحت لها فيه أن تبني من الغواصات ما تشاء دون التفات الى مصـالح فرنسا ومع ما في ذلك من نقضٍ للوعد الذي قطعته على نفسها للعصبة ومن دَلالة على أنهـا غيرُ جادّة في مكافحة الفاشية وغير راغبة في أن تصير العصبة قوة حقة .

حرب الحبشة

وسرعان ما أعقب ذلك وثوب ايطاليا على الحبشة في ٣ اكتوبر ١٩٣٥ فأعلنت الحكومة السوفييتية أنها مستعدة لتنفيذ كل ما تتخذه العصبة من قرارات لمساعدة الحبشة غير أن سائر دول العصبة، وفي مقدمتها بريطانيا، أظهرت كل ما استطاعت أن تظهر به من عجز عن معاقبة الدولة المعتدية عقاباً إيجابياً رادعاً كإقفال قناة السويس في وجهها أو عقاباً سلبياً ناجعاً كمقاطعة صادراتها مقاطعة تشل اقتصادياتها المرتبكة، والامتناع من إرسال زيت الوقود اليها، وهو ماكان يؤدي على الأرجح الى أفول نجم موسوليني سريعاً وانهيار النظام الفاشي وهذا ما لم تكن تريده الحكومة البريطانية في ذلك الوقت.

وقد بسط مستر تشرشل أخيراً موقف بريطانيا من حرب الحبشة في النداء الذي وجهه في ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠ الى الشعب الايطالي يدعوه الى نبذ موسوليني والى اتباع بيت سافوا، قال:

« إننا في حرب معكم، فيالها من كلمة غريبة مروعة! من كان يظن قبل الأعوام المؤلمة الأخيرة أن الأمتين البريطانية والايطالية تحاول كل منهما أن تقضي على الأخرى... كيف كان هذا ولِمَ كل هذا؟ أيها الايطاليون، سأصارحكم بالحقيقة: إنما هذا كله من أجل رجل واحد.. أما أنه رجل عظيم فاني لا أنكر ذلك. كذلك لا ينكر أحد أنه بعد ١٨ عاماً تمتع فيها بالسلطان المطلق قاد بلادكم الى حافة الدمار الرهيب...

فما هو الدفاع الذي قُدِّم تسويغاً لهذا العمل؟ هو ولا ريب تلك المشاحنة حول العقوبات ومسألة الحبشة، فلننظر في ذلك...

جاءت الحبشة وقرعت الباب طالبة الاندماج في عضوية العصبة فقدّمنا نحن نصيحتنا بألاّ يكون ذلك، فقد كنا في شك من وصول الأحباش الى مستوى من التقدم يسوّغ ضمهم الى مثل هذا الميثاق الخطير، ولكن كان سنيور موسوليني هو الذي أصرّ على أن

تكون الحبشة عضواً في العصبة ... وإني لأصارحكم بأنه لم يحدث شيء في تلك المشاحنة الحبشية يمكن أن يكون سبباً أو مسوغاً لهذا الكفاح الرهيب . . .

وهذه هي الرسالة التي أرسلتها الى سنيور موسوليني : الآن وقد توليتُ رياسة الوزارة ووزارة الدفاع ، أصارحكم بأني لم أكن في يوم من الأيام عدواً للعظمة الايطالية ولم أكن في قلبي عدواً لايطاليا . . . » الخ

أجل ، علت في انجلترا صيحات شعبية كثيرة تندد بالاعتداء الايطالي ، بيد أن الحكومة البريطانية لم تقاوم هذا الاعتداء ، بل لقد بذلت ما في وُسعها لمعاضدته وفقاً لاتفاق سنة ١٩٢٥ . وتأثرت الكاي دور ساي (وزارة الخارجية الفرنسية) وزارة بريطانيا في الاقتصار على معارضة موسوليني معارضة صورية ، بل هي قبلت أن تحمل تبعة الفشل والتهاون فأتاحت للوزارة البريطانية أن تتبدى في صورة الملك البريء الذي يريد أن يعمل ولكنه يُلفي نفسه عاجزاً عن العمل . لقد كانت فرنسا تأمل بتهاونها المزري في المسألة الحبشية أن تجد من موسوليني نصيراً على هتلر ، ولكنه ما كاد ينتهي من ازدراد الحبشة حتى انتبذ فرنسا كما ينتبذ الإنسان ليمونة معصورة ، فعادت من جديد إلى الارتماء بكلّيتها في أحضان بريطانيا . وقد اضطرت الوزارة القومية قبيل انتخاب مجلس العموم الى أن تُحل سير صمول هور محل سير جون سيمون الذي كان قد أسخط الشعب بتأييده ايطاليا.

وقد طلب صمول هور ولافال أن تدمغ العصبة ايطاليا بالمعتدية وأن تعين لجنة من الخبراء ترسم الخطة الصالحة لمعاقبتها عقاباً رادعاً ، فاستقرَّ رأي الخبراء على أن تمسك الدول عن إصدار الألومنيوم إليها ، وهو المعدن الذي تستنبطه إيطاليا من مناجمها وتُصدِر منه الى الدول ما يفضُل عن حاجتها . بيد أن الانتخابات ما كادت تنتهي في مصلحة الوزارة القومية حتى أعلن مشروع هور — لافال في ديسمبر ١٩٣٥ وهو يمنح موسوليني قسماً كبيراً من الحبشة ويجعل الباقي منطقة للنفوذين البريطاني والفرنسي . وقد أثار هذا المشروع سخط الشعب البريطاني حتى لقد طرد صمول هور من الوزارة .

لقد كان في وُسع الوزارة البريطانية أن ترسل الى أهالي الحبشة ما يحتاجون إليه من مال وعتاد بدلاً من تركهم للايطاليين يجندونهم لمقاتلة البريطانيين وإجلائهم عن الصومال

البريطاني . وكان في وسعها ، وهي المسيطرة على مدخل البحر الأحمر ، أن تمنع الأمداد عن أولئك الـ ٤٠٠ر٤٠٠ من قطّاع الطرق وعمال الطرق بدلا من أن تتركهم يقطعون عليها طريق البحر الأحمر ، فضلاً عن إثارتهم العرب عليها ليقطعوا الطريق البرية التي تبدأ من الخليج الفارسي الى قناة السويس مارّة بالعراق وشرق الأردن وفلسطين .

وهكذا استمرّت الحرب الظالمة التي لم يُرد أحد منعها ، حتى فتح الجيش الايطالي العاصمة أديس أبابا في ربيع ١٩٣٦ . وقد قال مستر إيدن وزير الخارجية ، في مجلس العموم في ١٨ يونيو ١٩٣٦ « يجب علينا أن نعترف أن الغرض الذي قصدنا اليه من فرض العقوبات لم يتحقق ، وليس من الضروري أن ندلي بتفصيلات عن أسباب ذلك ، ولكن أحد تلك الأسباب أن ذوي الرأي من رجال الحرب في معظم الدول أساءوا التقدير إذ حسبوا أن هذا النزاع سيدوم أطول كثيراً مما كان ... » . ومعنى هذا أن الذين فرضوا العُقوبات لم يكونوا يريدون بها وقف الحرب الاعتدائية ، بل كانوا يبغون بها إطالة أمدها . وقد أجاد أحد الصحفيين إذ كتب متهكماً أن مستر إيدن قد شكا من « أن هؤلاء الزنوج الملعونين خانوا واجبهم نحو الإمبراطورية لكي ينقذوا عصبة الأمم » .

حرب إسبانيا

وما أسرع ما انكشف الستار عن مأساة إسبانيا التي لعب هتلر وموسوليني أهم أدوارها . لقد استعرت نار الحرب الأهلية في تلك البلاد في يوليو ١٩٣٦ فقد تذمر ضباط الجيش من الإصلاحات التي قامت بها الحكومة الجمهورية التي تلت دكتاتورية بريمو دي ريفيرا ووجدوا في ذلك غضًّا من مركز أُسَرهم في المجتمع . إذ كان الضباط في العهد الملكي يختارون من أبناء الأشراف الأقطاعيين وكبار الملاك والصيارفة . فارتمت هذه الطائفة من أصحاب الامتيازات — كما هي العادة — في أحضان مستعمر أجنبي ، في أحضان موسوليني الذي لم يكن قد تكشّف بعد عن طبل أجوف . وقام الضباط العصاة بالفتنة فانبرى لهم عمال المناجم والمصانع متسلحين بما استطاعوا أن يحصلوا عليه من السلاح

ودافعوا عن وطنهم وطبقتهم أشد دفاع ، وناهيك بما ألحقوه بالايطاليين من الهزيمة التاريخية في وادي الحجارة .

وقد كان ثمّ خطرٌ أن تحتلّ جيوش هتلر وموسوليني جبال البرانس ، حتى لقد طالب أركان حرب الجيش الفرنسي ببناء خط ماجينو في البرانس ، كما كان احتلال الجنود الايطالية لجزائر البَلْيار يهدد طرق فرنسا البحرية الى مستعمراتها في إفريقيا . ومن الواضح أن ايطاليا لم تنفق وحدها ٤ ملايين من الايرات دون أن تكون لها أطماع خاصة (كان سعر المائة ليرة إذ ذاك ١٠٥ قرش ، أما الآن فهي لا تساوي كثيراً) . ولكن وزارة الخارجية البريطانية القابضة على دفة السياسة الخارجية الفرنسية ، كانت تنظر في سرور الى هذا العصيان المسلح ، فكلما فشا الدمار في اسبانيا أصبح جبل طارق أقل تعرضاً للهجوم عليه من البر الاسباني ، وكانت تأمُل أن تسيطر على اسبانيا فيما بعد بما تستطيع أن تبذل لها من قروض يعجز موسوليني عن بذل مثلها ، فهي تترك دافعي الضرائب الايطاليين يدفعون نفقة ذلك العصيان المشئوم لكي تجني هي ثمرته وأرباحه بمهارة الصيرفي القدير ، ولذلك أعلنت بريطانيا وفرنسا أنهما لن تتدخلا في النزاع (دون أن تأبه بريطانيا لما نال بعض رعاياها من اعتداء وما أصاب تجارتها من كساد) وهذا الإمساك عن التدخل يذكرنا بإمساك الشيطان « مفيستو فيليس » عن التدخل في المبارزة بين فاوست وشقيق عشيقته مرجريت [1] . ولما تدخّل الاتحاد السوفييتي في الأمر بعد ذلك لمصلحة الحكومة التي انتخبها الشعب ، أبدت حكومتا بريطانيا وفرنسا تضجرهما من هذا التدخّل . وقد شرح ستالين سياسة الدول الديمقراطية في الامتناع من التدخّل ، فقال « قد يفسرون سياسة عدم التدخّل على النحو الآتي : فلندع كل دولة تذود عن نفسها قدر استطاعتها فليس هذا من شأننا ، وسنتّجر مع المعتدين وضحاياهم على السواء . إن هذه السياسة ، من الناحية العملية ، إن هي إلاّ إغضاء الطرف عن الاعتداء وإرخاء العنان للحرب ، ومن ثمّ تحويل الحرب الى حرب عالَمية » .

وقد لاذ ستالين بالدَّعة ، رغبةً منه في ألاّ يفسد سياسته مع الغرب ، ولم يحرّك ساكناً إلاّ بعد أن صار من الجلي أن ايطاليا وألمانيا تتدخلان في الأمر . وكان يعلم أن انتصار الفاشيين

(١) في رواية « فاوست » تأليف جوته

في اسبانيا يعرّض حليفته فرنسا للأخطار، فشرع يرسل الخبراء الحربيين السوفييتيين إلى الجيش الجمهوري. وأخذ الشيوعيون يكتّبون الكتائب من شتى الأمم لمقاتلة البغاة، فأبدى سادة انجلترا وفرنسا استياءهم من هذه اليقظة السوفييتية وأعلنوا اقتناعهم بأن ألمانيا وايطاليا إنما تقاتلان ذياداً عن الحضارة الغربية. وهكذا اندفع حكام الدول الديمقراطية يخدمون أبعد أغراض خصومهم عن الديمقراطية.

وبيناكان الجمهوريون الاسبانيون ينادون أن افتحوا الحدود وساعفونا بالعتاد، كانت السيتي City (دوائر أصحاب رؤوس الأموال في لندن) تبدي عطفها على فرنكو صراحةً، وكان الرجعيون الانجليز والفرنسيون، وفي مقدمتهم تشمبرلن وبونيه، يتحرّقون رغبةً في أن يروا ذلك الدفاع المفعم بالبطولة قد انقضى. وقد دأبت الصحف الرجعية في بريطانيا وفرنسا تحض الجمهوريون على إلقاء السلاح وتذيع أنباء خلافات تزعم اضطرام نارها بين رجال الحكومة الجمهورية، وكانت في بعض الأحيان تلتمس من الحكومة البريطانية أن تسعى بالوساطة بين الفريقين.

وسار هتلر في طريقه قُدُماً فانقضّ بجيوشه على الجمهورية النمسوية. فلما اقترح الاتحاد السوفييتي بهذه المناسبة في ١٧ مارس ١٩٣٨ أن تعقد الدول غير المعتدية مؤتمراً يعمل على توطيد السلام، أبت ذلك بريطانيا وفرنسا.

وانتقل مسرح المأساة الى تشكوسلوفاكيا، فألقى هتلر في مؤتمر النازيين بنورمبرج خطاباً حمل فيه على تلك الجمهورية الصغيرة حملة منكرة وتهدد الدول الضامنة لها وأعلن أنه قد اعتزم «حماية» السوديت (الذين نزح أسلافهم من ألمانيا الى الجنوب) وكان ذلك الخطاب إشارة الهجوم، فهبّ السوديت يهاجمون مسالح الشرط ودور البريد ومحطات السكك الحديدية ويطلقون الرصاص على أبناء الشعب الذي آواهم فأحسن مثواهم، وطفقوا يلوّثون الأبنية برسم الـ«سفاستكا» (الصليب المعقوف) وأبى زعيمهم هنلاين قبول ما اقترحته براج من مشروعات يراد بها تنظيم حقوق الأقليات، ودأب يثير الشغب، ممثلاً في تشكوسلوفاكيا الدور الذي مثله فرنكو في اسبانيا وسايس إنكوارت في النمسا.

وسنت الحكومة التشكوسلافية الأحكام العرفية، ووقفت بتأثير الرأي العام في بلادها

وفي العالم موقفاً حازماً فالتاث الأمر على هتلر .

ولم يسع نفل تشمبرلن أن يقف ساكناً في هذا المأزق الذي زجَّ بنفسه فيه ، فبادر بالرحيل الى مقر « الزعيم » في برشتسجادن ليقيل عثرته وليقر إجراء استفتاء بين السكان .
لقد كانت سياسة انجلترا ، وسياسة فرنسا تبعاً لها ، قائمة على التسليم للمعتدين ، تسليم تشكوسلوفاكيا لألمانيا ، وتسليم فلسطين للصهيونيين ، وتسليم الاسكندرونة لتركيا ، وتسليم مقاليد بلادهما للرأسماليين . وقد كان هتلر على علم بذلك وكان يعتمد على ضعف الروح المعنوية في الحكومات الرأسمالية الديمقراطية أكثر مما يعتمد على قوته الحربية .

وقد أعلن الرفيق كالنين رئيس الاتحاد السوفييتي في ١١ مايو ، وأعلن سفير الاتحاد السوفييتي في الولايات المتحدة الأمريكية في ٢٥ أغسطس ١٩٣٨ أن الاتحاد السوفييتي غير ناكل عن تنفيذ عهوده لفرنسا وتشكوسلوفاكيا بنصها وروحها ، ولكن هذا القول لم يلقَ أذناً واعية . فلما استغلظت الأزمة بعد ذلك في النصف الأول من سبتمبر ، اقترح الاتحاد السوفييتي في جنيف أن يقوم هو وبريطانيا وفرنسا بعمل مشترك لمصلحة التشك وأن تطبق المادة ١١ من ميثاق عصبة الأمم ، بيد أن بريطانيا وفرنسا وقَرَت آذانهما عن استماع هذا الصوت مرة أخرى .

مؤتمر ميونخ

وعقدت ألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا مؤتمراً رباعيّاً في ميونخ ، مغفلين دعوة الاتحاد السوفييتي اليه ليحبطوا بذلك سياسة التعاون بينه وبين الدول الغربية ، وقد داست بريطانيا وفرنسا على عهدهما لتشكوسلوفاكيا وأبتا أن تحاربا من أجلها متآزرتين مع الاتحاد السوفييتي . وطابت أنفسهما أن يقدما ، عربوناً لصداقة ألمانيا المنشودة ، حليفتهما الصغيرة التي كانت بجبالها البوهيمية وتحصيناتها الحديثة وتسليحها الكامل ، سياجاً منيعاً يحول بين ألمانيا والتقدم نحو الشرق .

وتسلَّم الجيش الألماني خط التحصينات العظيم المشيد على صورة خط ماجينو واطلعوا

فيه على كل أسرار خط ماجينو . قال موريس توريز في خطبة له «إن يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ سيكون في التاريخ ذكرى مخجلة لأفظع خيانة للشعب الفرنسي ، ارتكبتها حكومة جمهورية نحوه ونحو السلام والديمقراطية .... إن أولئك الذين كانوا يصلوننا نار الحرب ونحن نقاوم أخطاء معاهدة فرساي وما يمكن أن ينجم عنها من أخطار قد راحوا اليوم يؤيدون هتلر ويقرّون مطالبه . إن تشمبرلن يريد أن يجعل من هتلر حارساً لأوربا الرأسمالية الجديدة في وجه الطبقة العاملة والاتحاد السوفييتي . ألا فاسمعوا ما تقوله جريدة لجور ، تقول : إن مزية هذا الاجتماع الأساسية هي أن الاتحاد السوفييتي قد حرم حقّ الاشتراك فيه ، ولن يكون أكثر من هذا العمل لأبعاد الاتحاد السوفييتي عن أوربا ورجعه الى آسيا والى نضالاته الداخلية » .

لقد تردّت فرنسا في حضيض الخزي والاستكانة إذ أظهر وزير خارجيتها بونيه استعدادها للتخلي لألمانيا عن نفوذها في شرق أوربا وأقرّ فون ربنتروب على أن الاتفاق الذي عقدته هي والاتحاد السوفييتي إن هو الاّ « استمرار لسياسة فرساي التطويقية » . أما بريطانيا فقد كانت ما تزال في غفوتها سعيدة بحلمها اللذيذ أن هتلر لا يريد أكثر من أن يعيد سائر أبناء «شعب السادة» Herrenvolk الى أحضان بلاده ، يسيطر عليها اعتقادها المريح بأن « السلم يسود وقتنا هذا » . وهكذا ألفى الاتحاد السوفييتي نفسه في خريف ١٩٣٨ بلا حلفاء ، وكان الخطر محدقاً به ، فلم يستطع أن يفعل لتشكوسلوفاكيا شيئاً .

وحرّكت « ميونخ » شهية ألمانيا إلى أن تزدرد دولاً جديدة ، واحدة بعد أخرى ، على أن يسوى الأمر في ميونخ ثانيةً وثالثةً ، فأخذت ترفع الصوت عالياً مطالبة بما كان لها من مستعمرات وطفقت تتحدثُ عن أكرانيا وتبذل نشاطاً خبيثاً بين الاكرانيين الذين لفظتهم الثورة الى برلين . بل إن إيطاليا نفسها ملأت الجو بعواء «أبناء آوى» تطالب بأن تمنح إقليم سافوا وجزيرة كورسيكا وتونس وامتيازات في قناة السويس، وبأن تنزل فرنسا لها عن سكة حديد أديس أبابا — جيبوتي . على أن الأمر لم يقف بالألمان عند حد الأحاديث، فقد تحرّك الجيش الألماني في منتصف مارس ١٩٣٩ واجتاح ما كان قد بقى من دولة التشك ، فبدّد ضجيج دباباته في براج أحلام النائمين في لندن وباريس. حتى إذا ما أتم الفيرر Führer ابتلاع

تشكوسلوفاكيا افتضح الميونيخيون الذين كانوا يتشدّقون بأن الحل الذي جادت به ميونخ ظفرٌ لسياسة « المنطق والروية » ، فأخذوا يعصرون أعينهم ويجاهرون بأن عهود هتلر إن هي إلاَّ قصاصات من الورق لا وزن لها ولا يصح بعد أن يركن اليها . ومع ذلك وقف سير جون سيمون ، أسوأ من ولي وزارة الخارجية البريطانية ، في مجلس العموم يوم ١٥ مارس وهو اليوم الذي اغتصبت فيه براج ، وطفق يندد بسياسة الضمان الجماعي الذي كان هو المخلِّص الوحيد مما وقعت فيه أوربا الديمقراطية . ولم يدع هتلر الوقت يمر سدًى ، بل وجه الى رومانيا إنذاراً بأن تبيع من ألمانيا كل ما تنتجه من زيت الوقود ومن المواد الغذائية، على أن تأخذ في مقابله مصنوعات ألمانية ، ويطلب اليها أن تقصر جهودها على إنتاج المواد المطلوبة منها وأن تتخلى عن كل مسعى لأن تكون دولة صناعية ، ويعدها في مقابل قبول هذه الطلبات بأن « يضمن حدودها » ، وذلك يعني في لغة المغتصبين أنها إن أبت أضحت حدودها بلا ضمان .

وذهب سفير بريطانيا لدى موسكو في ١٨ مارس ١٩٣٩ يبلغ الحكومة السوفييتية أن لدى دولته من البواعث ما يحملها على الخوف من أن تهاجم ألمانيا رومانيا ويسألها ما عسى أن يكون موقفها بإزاء هذا التهديد ؟ فكان جوابها أن قدّمت مقترحاً يشبه المقترح الذي قدَّمته عقب غزو ألمانيا للنمسا في مارس ، والذي لو قبلته بريطانيا وفرنسا لما كان تَمَّ ميونخ ، كما أنه يشبه المقترح الذي قدَّمته عند ما احتدمت الأزمة التشكوسلافية فكان نصيبه الردَّ . كذلك اقترح الاتحاد السوفييتي في هذه المرة أن يعقد ببخارست في الحال مؤتمر سداسي يضم ممثلي بريطانيا وفرنسا وبولونيا ورومانيا وتركيا والاتحاد السوفييتي للنظر في الأمر والبتّ فيه .

لو أن هذا المقترح ظفر بالقبول لما كانت الحرب في تلك السنة لأن هتلر كان مصرًّا على أن يتجنب الحرب في جبهتين كما ثبت ذلك من تصرفاته التالية ، إذ أنه لم يشن الحرب على الاتحاد السوفييتي إلاَّ بعد أن سدّ الطريق اليه بافتتاح البلقان وكريت وبالاتفاق مع تركيا . وقد استمرَّ بعد ذلك يحارب في جبهة واحدة هي الجبهة الروسية ، فاذا حدث بعد ذلك أن وقعت حرب في جبهة ثانية فسيكون ذلك نتيجة شيء واحد هو سوء تقديره لقوة (الاتحاد

السوفييتي) ، ولـكن مستر تشمبرلن كان ما يزال راغباً في إطلاق يد المانيا في الشرق ، فلم يقبل هـذا المقترح زاعماً أن المؤتمرات تستغرق وقتاً في حين أن الأمر يحتاج الى سرعة في العمل ، ولذلك اقترحت بريطانيا أن تدلي هي وفرنسا والاتحاد السوفييتي وبولونيا بتصريح مشترك . فماذا كان يتضمنه ذلك التصريح ؟ لقد كان يتضمن — على ما نشرته التيمس في ٢٣ مارس — « اتفاقاً على المشاورة إن حدث ما يدعو اليها » وهو تصريح رنّان ولـكنه لا معنى له ، بل هو يعني إعلان أن بريطانيـا لا تنوي أن تفعل شيئاً . ومع ذلك أبدى الاتحـاد السوفييتي رغبته في أن يوقع على هذه الوثيقة رؤساء الوزراء ووزراء الخارجية ، بيد أن الحـكومة البولونية ، أبت أن يوقع ممثلوها على أية وثيقة تحمل توقيعات زعماء الحـكومة السوفييتية ، وهكذا اخترم الموت هذا المسعى ساعة ميلاده . وذاقت بولونيا ثمار حماقتها بعد أشهر معدودات .

وقد رأت الحـكومة السوفييتية أن تحاول التفاهم مع الدول الديمقراطية مرة أخرى ، فاقترحت في ١٧ أبريل أن تعقد هي وبريطانيا وفرنسا ميثاقاً ثلاثيـاً لمقاومة الاعتداء حيث يكون ، فتجاهلت بريطانيا هذا المقترح .

ورأت المانيا أن تدعم مركزها بالعودة موقتاً الى سياسة ڤيمَر الذهبية[1] ، سياسة التعاون مع الاتحاد السوفييتي في الشؤون الاقتصادية والسياسية ، وانصرفت عن التغرير ببولونيا وحفزها الى اقتطاع قسم من أكرانيا . وعرضت على الاتحاد السوفييتي في أوائل سنة ١٩٣٨ أن تعقد معه معاهدة تجارية تقرضه بمقتضاها ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مارك فأبى ، فأعادت المانيا اليه مقترحها معدلاً في أواخر تلك السنة .

وأراد الاتحـاد السوفييتي أن يحـذّر بريطانيا وفرنسا التحذير الأخير فأعلن مفوض الشعب للشؤون الخارجية أمام مجلس السوفييت الأعلى (البرلمان) في ٣١ مايو ١٩٣٩ أن بلاده على وشك أن تدخل مع المانيا في مفاوضات . ولـكن الدولتين الرأسماليتين لم تستطيعا أن تتصورا أن هتلر سيوجه اليهما هما ضربته الأولى ، وحسبا أن البلاشفة يقومون بمداورات يبغون بها رفع ما يتقاضون من ثمن ، فوضعا أصابعهما في آذانهما وأصرّا على تجاهل دعوة الاتحاد السوفييتي إياهما الى محالفته ، كما أنهما لم ييأسا من إمكان التفاهم مع المانيا وايطاليا .

---

(١) وهي المدينة التي وضع فيها الدستور الالماني بعد الحرب العالمية الاولى

مفاوضة بريطانيا

والاتحاد السوفييتي

بيد أن الشعب الإنجليزي ثارت ثائرته وأكره وزيره الأول على أن يفاوض الاتحاد السوفييتي لتنظيم جبهة سلام حملية في وجه الاعتداء . على أن الوزير لم يكن يريد أن يصل الى نتيجة ، ولهذا اختار لتمثيل بلاده موظفاً صغيراً وزوّده بأسوأ النصائح والإرشادات. اقترح ممثلو الاتحاد السوفييتي إقامة جبهة منه ومن بريطانيا وفرنسا وكذلك من بولونيا إن أمكن ، على أن تقدم كل من هذه الدول مساعدتها للأخريات . فأما بريطانيا فقد تحامت الإشارة الى المساعدة المتباذَلة وطلبت الى الاتحاد السوفييتي أن يبادر الى إنجاد بريطانيا وفرنسا إذا اشتبكتا في حرب تحقيقاً لضمان استقلال بولونيا ورومانيا ، دون أن تشير الى أنهما هما أيضاً تقومان بمساعدة الاتحاد السوفييتي إذا اشتبك في حرب تحقيقاً لضمان استقلال دول أوربا الشرقية ، وبذلك ، كما قالت صحيفة إزفستيا ، « نرى أن الاتحاد السوفييتي لن يكون — نتيجة للمقترح البريطاني — على قدم المساواة مع بريطانيا وفرنسا . وهنالك أمر على جانب كبير من الخطر ، ذلك أن الرد على الاعتداء سيكون منوطاً بقرار من بريطانيا وحدَها، أو من فرنسا وحدَها ، مع أن الاتحاد السوفييتي — بسبب وضعه الجغرافي — هو الذي سيتحمل عبء العمل في هذا الرد » .

***

وقد نشرت صحيفة برافدا في ٢٩ يونيو مقالاً هامًّا بقلم زدانوف Zhdanov رئيس لجنة الشؤون الخارجيـة بالبرلمان السوفييتي والسكرتير باللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، تضمن إنذاراً صريحاً لحكومات الدول الديمقراطية الغربية ، وقد أوضح فيه أن البريطانيين والفرنسيين ليسوا خالصي الرغبة في عقد ميثاق بالمساعدة المتباذَلة ومقاومة الاعتداء الفاشي مقاومة حقة ، وذكر أنه من بين الخمسة والسبعين يوماً التي استغرقتها المفاوضات ١٦ يوماً

قضاها الاتحاد السوفييتي في إعداد أجوبته ومقترحاته في حين أضاع الفرنسيون والبريطانيون ٥٩ يوماً . واتهم حكومتيهم بأنهما تريدان عقد ميثاق ذي ناحية واحدة ، يلزم الاتحاد السوفييتي بمساعدتهما عند الحاجة دون أن يقيدهما بتقديم أية مساعدة في مقابل ذلك «وهو ميثاق لا يمكن أن توقع عليه دولة تحترم نفسها » .

***

وقد علّق لويد جورج في جريدة سنداي اكسبريس على سير المفاوضات ، فقال في عُرض كلامه « تسير مفاوضاتنا مع روسيا منذ ٤ أشهر متلكئة ، وهي تبدو الآن بعد هذا الزمن الطويل أسوأ مما كانت حين ابتدأناها ... والحقيقة التي أراها أن مستر تشمبرلن ولورد هليفكس وسير جون سيمون يكرهون الاتفاق مع روسيا . ولولا ذلك لما أشخصوا للمفاوضة كاتباً من كتبة وزارة الخارجية . وقد كان على مستر تشمبرلن أن يقصد بنفسه الى موسكو لعقد الاتفاق ، وإنه لموفور النشاط جم الحركة ، سافر قبلُ ٣ مرات الى ميونخ وتوجّه بالزيارة مرة الى موسوليني ليبشره بالاعتراف بفتحه للحبشة وليطمئنه على مصير إسبانيا ، فلِمَ لا يسافر بنفسه الى روسيا ولِمَ لا يسافر لورد هليفكس أيضاً ؟ » .

وقد اقترح البلاشفة على بريطانيا أن ترسل اليهم بعثة حربية ، وكانت أزمة دانتسيج تتفاقم باطراد وكانت سائر الأحوال والملابسات تجعل إرسال هذه البعثة في التو أمراً لا مندوحة عنه ، غير أن البعثة لم تخفّ للسفر الا في ٥ أغسطس ثم إنها انتخبت لرحلتها أطول الطرق حتى إذا ما ألقت رحالها تبين أنها لا تملك حق البت في أي أمر ، ومن ثمّ كان عليها أن تتصل بحكومتها في كل ما يعرض لها ثم تنتظر تعليماتها .

وانتهى الأمر بأن أبت حكومة بولونيا أن تقبل أي ميثاق يُبيح للجيش الأحمر أن يساعدها فوق أراضيها ، وأعلنت الحكومة البولونية أن بولونيا مستعدة وقادرة على أن تقاوم أي اعتداء ألماني دون مساعدة السوفييت .

***

بذل الاتحاد السوفييتي حتى ربيع ١٩٣٩ كل ما وسعه في سبيل السلم ، لا يثنيه عن

ذلك ما تواجه به مساعيه من ردٍّ مهين وجحودٍ شائن . لقد رزئت الدول الديمقراطية (أو البلوتوديمقراطية كما كان يسميها هتلر إشارة الى أنها محكومة برأس المال) في السنوات السابقة للحرب بساسة حمقى وغيرت صدورهم على الاتحاد السوفييتي فطمست السخيمة على قلوبهم فقصروا عن إدراك مرامي الفاشية وكلّت أبصارهم عن رؤية الخطر الزاحف على بلادهم فلبثوا يشهدون في شبه غيبوبة مصرع الديمقراطية في أوربا ، ويرون في هدوء جمهوريات النمسا وتشكوسلوفاكيا وإسبانيا تسقط صريعة تحت أقدام أولئك الطغاة ، العاملين على بسط سلطانهم على العالم أجمع .

***

تفاقم قلق الكرملين في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فإن الميثاق الذي عقدته ألمانيا واليابان في نوفمبر ١٩٣٦ قد انتظم ايطاليا أيضاً في السنة التالية ، وظلّ الداعون الى مضادقة المحور يزعمون أن هذا الحلف لم يبدّل من حالة أوربا شيئاً ، ويصمّون آذانهم عما أنذرهم به البلاشفة من أن هذا الميثاق المعادي للكومنترن ينطوي على تحالف مناوىء لبريطانيا وفرنسا . وقد استبدلت بوزارة الجبهة الشعبية في فرنسا وزارة راديكالية . وأخذت معركة الصين تدور في غير مصلحة حليفة الاتحاد السوفييتي . وقد سعى مستر تشمبرلن في ميونخ ، هو ومن معه من أنصار التهدئة ، لا في أن يقهروا التهديد الألماني ، بل في أن يحوّلوا اتجاه مجراه من الغرب الى الشرق ، وفي أن يمهدوا السبيل لاشتراك بريطانيا في شنّ الحرب على الاتحاد السوفييتي الى جانب ألمانيا ،

***

وقد أبى البلاشفة أن يحالفوا النازي على الدول الديمقراطية ، فأما هذه فما فتئت تأبى العمل مع البلاشفة وتسعى الى إحباط جهودهم في سبيل الضمان الجماعي ، وظلت مستمسكة باعتقادها أنها تستطيع أن توجّه جيوش الفاشيين نحو الاتحاد السوفييتي بعد انتهائها من ابتلاع الشعوب الصغيرة . ولم يكفّوا عن مكاشفة الاتحاد السوفييتي بالعدوان حتى بعد أن كبت النازي عواطفه وسارع الى الاعتراف بحدود الاتحاد السوفييتي .

ميثاق عدم الاعتداء

يئس الاتحاد السوفييتي من الحلفاء بعد أن ظلوا يقابلون مقترحاته بالزراية والاحتقار وعلم أن الاستمرار في اتباع سياسة الضمان الجماعي التي لاقت خيبة مستمرة من سنة ١٩٣٤ الى ١٩٣٩ ، يعرّضه للاصطلاء بنار حرب صليبية يقف فيها وحيداً ويتألب عليه الجميع ، فلم يجد بدًّا من اهتبال الفرصة الأخيرة للتنكب عن طريق الحرب في هذا الطور من التاريخ الذي كانت الحرب الاستعمارية فيه موجهة الى الدول الديمقراطيـة التي أبت في إصرار أن تبسُط يدها اليه ، ولاتقاء خطر تحويل سكة حديد الحرب الى بلاده . لذلك أقدم على مفاوضة ألمانيا ، وكانت مفاوضـة سهلة يسيرة قوي فيها مركزُه بوجود وفد بريطانيا في موسكو . ولم يكن الألمان يريدون من الاتحاد السوفييتي غيرَ الحياد ، وكان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته على استعداد لعقد مواثيق بعدم الاعتداء مع كل دولة ترغب في ذلك . وهكذا أمضت الدولتان ميثاق عدم الاعتداء في ٢٤ أغسطس ١٩٣٩ وبذلك بدأت فترةٌ جديدة في حياة الاتحاد السوفييتي .

وارتجت الدول الرأسمالية الديمقراطية من هول الصدمة ، وهبتْ من سباتها وقد طرقت الحرب عليها الأبواب لتذيقها ثمار سياستها .

وقد أوضح مولوتوف الموقف في ٣١ أغسطس ١٩٣٩ بين يدي مجلس السوفييت الأعلى إذ كان يطلب اليه إقرار ذلك الميثاق ، فقال « ولما كانت المفاوضات (مع الحلفاء) قد أظهرت استحالة قَبولهم عقد ميثاق للمساعدة المتبادَلة ، لم يسعْنا إلاَّ أن نبحث عن وسائل أخرى ممكنـة لتأمين السلم ولإزالة خطر اشتباك ا . ج . س . ا في حرب معَ ألمانيا ، فإذا كانت حكومتا بريطانيا وفرنسا تأبيان الاعتراف بذلك فهما وشأنهما . أما نحن فواجبنا أن نفكر في مصالح ا . ج . س . ا ولاسيما أننا مقتنعون اقتناعاً راسخاً بأن مصـالح ا . ج . س . ا تطابق مصالح شعوب البلدان الأخرى » .

لم يتخلَّ الاتحاد السوفييتي بعقده هذا الميثاق عن شيء من مبادئه الماركسية — اللانينية ،

كما أنه لم يحد بالتزام الحياد الدقيق عن خُطته في تأييد الشعوب التي يُعتدى عليها (كما أيد الأسبانيين الجمهوريين على الألمانيين والايطاليين وصنائعهم) وكما أيد الصينيين على اليابانيين ولم يكفّ عن تأييدهم حتى بعد أن عقد مع اليابان ميثاقاً بعدم الاعتداء ، وكما أبدى استعداده لتأييد التشك على الألمان إذا وفت فرنسا بالتزاماتها نحو تلك الحليفة الصغيرة).

ولا يدل وضع مولوتوف على رأس مفوضية الشعب للشؤون الخارجية في المكان الذي كان يشغله لتفينوف — على الانثناء عن الاتجاه السياسي السابق ، فليس الاتحاد السوفييتي كالدول الرأسمالية يستطيع كل وزير أن يجري فيها على سياسته الخاصة أو سياسة الكتلة التي ينتمي اليها ، بل إن مفوضية الشعب للشؤون الخارجية تتبع السياسة التي تضعها الحكومة السوفييتية والحزب الشيوعي . وإنما كان هذا الحياد أمراً عارضاً اقتضته الملابسات السياسية الطارئة وحاجة البلاد الى « مهلة للتنفس » فهو لا يعني الأخلاد الى السلم بل لعله أن يعني التأهب للحرب . وإنه لمن الخطأ أن يُقال إن الاتحاد السوفييتي قد شايع ألمانيا بعقد هذا الميثاق ، كذلك كان من الخطأ أن يقال إنه كان يشايع بريطانيا حين كان ينشد الضمان الجماعي وإنما الحق أنه كان ولا يزال يشايع شعبه ومبادئه وحدها .

لقد أظهر عقدُه هذا الميثاق يقظة السياسة السوفييتية وحماقة الساسة الديمقراطيين ، أولئك الذين أبوا أن يحالفوا الاتحاد السوفييتي متجافين عن كل ما لهذا التحالف من المزايا التي اهتبلها منافسوهم الفاشيّون .

وقد تجرّم منذ عُقِد هذا الميثاق سنوات عِدَّة ، ففي مقدورنا الآن أن نحكم على نتائجه حكماً منزهاً عن الهوى :

(١) ربح الاتحاد السوفييتي بقاءه بعيداً عن لظى الحرب ١٨ شهراً ، ولولا انهيار فرنسا وحلفائها ذلك الانهيار السريع الذي لم يكن يتوقعه أحد ، لامتدّ وقوفه بعيداً عن الحرب زمناً بعيداً . وقد أكمل الاتحاد السوفييتي في هذه الفترة تأهّبه لملاقاة الغزو الألماني ، فان ميثاق عدم الاعتداء لم يُزحزح الجيش الأحمر عن شعاره « كن دائماً على أهبة ؟ » .

وقد زاد الاتحاد السوفييتي عدد ساعات العمل اليومي واختزن ما يحتاج اليه من المواد ولاسيما ما يستورده من الخارج ، ونظم اقتصاده تنظيماً أكثر ملاءمة لأوقات الحرب .

(٢) أحسنت القيادة الحربية السوفييتية مراقبة الأسلحة والخطط الحربية الحديثة التي استخدمها الجيش الألماني في غزو بولونيا والأراضي الواطئة وفرنسا، فأعدّت من الخطط الدفاعية ما يصلح لإحباطها (وذلك على نقيض ما فعل الجيش الفرنسي الذي لم يقتبس علماً من غزوة بولونيا، وركن الى الزعم بأن انهيار بولونيا إنما كان من فساد الجيش البولوني وانحلاله لا من تقدم الفن الحربي الألماني وارتقائه.

(٣) ضمن ا. ج. س. ا. اضطرار أمريكا الى خوض غمار الحرب في زمن مبكر بعض الشيء حتى لا تضيع الفرصة الأخيرة لإنقاذ بريطانيا كما أضاعتها مع فرنسا. وضمن أن تكون سائر الديمقراطيات في صفه عند ما يحين لألمانيا أن تنتهك حرمة الميثاق المعقود بينهما وتنقضّ على بلاده.

ولو أنه أبى أن يعقد هذا الميثاق لبدأت ألمانيا بحربه، فقدكانت الحرب ضرورة ماسةً لهتلر، وكان من الميسور له في تلك الحالة أن يظفر بمحالفة الدول الديمقراطية، تلك الدول التي ظلت ٥ سنوات تأبى أن تعقد ميثاق الضمان الجماعي من المعتدي، والتي أثبتت في كل فرصة أنها تتربص بالاتحاد السوفييتي شرًّا. ويجب ألاَّ ننسى كذلك أن الحرب في الجبهة الغربية قد ظلت بعد انهيار بولونيا ٨ أشهر في فترة هدنة حقة كان من الميسور لهتلر والدول التابعة له أن يحاربوا خلالها. ا. ج. س. ا. وحده في حين يظل كل شيء هادئاً في الميدان الغربي.

(٤) وقد انتهز الاتحاد السوفييتي فرصة خلوّ الدول العظمى للحرب وتوطد نية ألمانيا على ألا تحارب في جبهتين، فأزال حاجز كليمنسو الصحي الذي ضربه الحلفاء حوله، واستردّ الولايات ذات الخطر الاستراتيجي العظيم، فتلقت عنه الصدمة الأولى المباغتة بدل أن تتلقاها لنينجراد، وموسكو، وستالينجراد، فكانت تلك الولايات رصيفاً تكسرت عليه أمواج الهجوم الألماني الخاطف، كما أنها منحت الاتحاد السوفييتي بعض الوقت اللازم لاتمام التجنيد العام، وأتاحت له فوق ذلك أن يعيد الى أحضانه ٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من أبنائه المشردين ليحاربوا معه بدل أن يساقوا الى محاربته.

غرب أكرانيا

لا شرق بولونيا

وينبغي لنا بهذه المناسبة أن نوضح ما قد يكون ملتبساً على بعض الناس في هذا الشأن: ما كاد الجيش الألماني يجتاح بولونيا الأصلية ويقضي القضاء المبرم على جيشها ويلجىء حكومتها الى التأهب للفرار ، تلك الحكومة نصف الفاشية التي أبت في عناد أن تقبل أية معاونة من الجيش الأحمر، حتى بادر الجيش الأحمر في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ فاستعاد منها أكرانيا الغربية وروسيا البيضاء الغربية ، وهما اللتان كانت قد اغتصبتهما من بلاده ، كما أعاد الى لاتفيا البلاد التي كانت بولونيا قد اغتصبتها منها .

وسكان هذين الاقليمين من الروس البيض والأكرانيين (وبينهم عدد كبير من اليهود) لا تربطهم ببولونيا رابطة جنسية أو لغوية أو دينية، ولا تسمح العدالة ولا حق تقرير المصير بضمهم اليها، ولا يقر الضمير الإنساني الحر إبقاءهم في ربقتها . وقد استولت بولونيا على معظم هذه البلاد عقب الحرب مع الجمهوريات السوفيتية (وهي الحرب التي اعتصب فيها حمالو ميناء لندن عن شحن الباخرة جورج الفكه jolly George بالأسلحة التي أريد إرسالها الى الجيش البولوني بمقتضى معاهدة ريجا التي عقدت في مارس ١٩٢١ . وظل سكان تلك البلاد ١٨ عاماً يتحملون — بوصفهم أقليات قومية — الإرهاق والعسف من حكومة نصف فاشية ويتعرّضون للسلب والنهب من الإقطاعيين البولونيين الذين هم أجانب عنهم . وقد ذكر لويد جورج في كتابه « الحقيقة عن معاهدات الصلح » الصادر سنة ١٩٣٨ أن مذابح البولونيين قد بلغت في جاليسيا الشرقية سنة ١٩٣٠ (على أثر اشتداد أزمة سنة ١٩٢٩) — ولا سيما في اليهود — مبلغاً أثار ثائرة الشعب البريطاني ، وأن المذابح قد استغلظت بعد موت مارشال بلسودسكي في مايو ١٩٣٥ . وكتبت صحيفة منشستر جارديان في ١٠ اكتوبر ١٩٣٨ تقول : « تجري تهدئة pacification أخرى في أكرانيا البولونية منذ أوائل الربيع

المبكر . ففي خريف ١٩٣٠ هدّأت أكرانيا البولونية بسريّات من الخيالة البولونيين والشرطة الراكبة كانوا ينتقلون من قرية الى أخرى فيلقون القبض على الفلاحين ويضربونهم ويدمرون ممتلكاتهم . وبلغ عدد من ضربوا هذا الضرب آلافاً عدّة . أما في هذه المرة فإن التهدئة تتخذ طرقاً أخرى ، تتخذ صورة حملة عامة مستمرّة على التشكيلات الأكرانية السياسية والتعليمية والاقتصادية » .

***

وقد ظلّ الاتحاد السوفييتي مع هذا كله لا يحرّك ساكناً ، حتى امّحت بولونيا من الوجود ، فتقدّم لاستعادة بلاده المغتصبة المعذبة . وإن « قانون الضرورة » الذي طالما استندت اليه الدول الأخرى في تسويغ أعمالها ، ليسوّغ للمرء أن يدخل بيت جاره لإطفاء النيران قبل أن تلتهم بيته هو أيضاً ، أما هذه الولايات فلم تكن ملك جاره لأنها أقاليم روسية أكرانية، ولأن ذلك الجار كان قد فارق الحياة . وهذا ما سلّم به ونستون تشرشل ، وكان وزيراً للبحرية ، في حديث أذاعه بالراديو في ٢ اكتوبر ١٩٣٩ إذ قال : « . . . أما الحادث الثاني في هذا الشهر فهو إثبات روسيا لمقدرتها ، فأنها قد اتبعت سياسة المنفعة الخاصة . . . ولكن وقوف الجيوش الروسية على هذا الخط كان بالبديهة ضرورياً لتأمين روسيا من التهديد النازي . وعلى أية حال فها هو ذا الخط الروسي هناك . تقوم عليه جبهة شرقية لا يجسر الألمان النازيون على اقتحامها .

. . . عندما دعي فون ربنتروب الى موسكو في الأسبوع الماضي كان ذلك لكي يفهم ويقبل الحقيقة التي هي أن خطط النازي المرسومة في بلاد البلطي وأكرانيا قد قضى عليها أن تضمحل وتزول . . . ولا يمكن أن يتفق مع مصلحة روسيا وسلامتها ترسيخ المانيا النازية لقدمها على شواطىء البحر الأسود ولا اجتياحها دول البلطي وإخضاعها الشعوب الصقلبية في جنوب أوربا الشرقي . وهكذا . . . أعلن في هذا المساء اقتناعي بأن الحادث الكبير الثاني في أول شهر من أشهر الحرب هو أن هتلر وكل ما يمثله هتلر تلقى إنذاراً واضحاً بالابتعاد عن شرق أوربا وجنوبها الشرقي » .

ولقد اختار الجيش الأحمر أصلح الساعات للعمل ، فلو أنه تقدّم ولو ٢٤ ساعة ، لكان

في ذلك مساعدة محسوسة للجيش الألماني ، ولو أنه وَنَى ولو ٢٤ ساعة لسبقه الجيش الألماني الى الاستيلاء على تلك البلاد وتاخم حدود أكرانيا التي ما أكثر ما تغزّل فيها هتلر في كتابه « كفاحي » .

ولقد كان في حرمان الجيش الألماني من خيرات تلك البلاد ومن سواعد أبنائها نفع عظيم لبريطانيا وحلفائها ، بيد أن وزارة تشمبرلن أعلنت تحالفها مع حكومة بولونيا المهاجرة في الوقت الذي كانت فيه هذه الحكومة تصرّح أنها في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي .

***

ومن المدهش أن عدداً من أبناء الامبراطورية التي تكوّنت من ضم الأراضي اليها ، أولئك الذين ما فتئوا منذ ٢٠ عاماً يقرفون الاتحاد السوفييتي بكل ما يخطر بالبال من التهم ، قد كشفوا فجأة أنه يخطف الأراضي ويتعامل على نمط الدول الرأسمالية ، وأنهم زعموا أن استرداده لما سلب منه قبلاً إنما هو وليد تواطؤٍ شامل بينه وبين ألمانيا . فهل هذا حق ؟ لنقرأ البرقية التالية :

« لندن في ١٣ اكتوبر ١٩٣٩ : تنشر الصحف الألمانية اتهامات عن ارتكاب الروس فظائع بالجملة في المناطق التي احتلها السوفييت في شرق بولونيا ، إذ يزعمون أن مئات من القسس قتلوا وأن ألوفاً من المستنيرين وأصحاب الأطيان أهلكوا .

وتقول رسالة من أمستردام أن لهجة جميع الصحف الألمانية تشف عن العداء لروسيا وأن انزعاج الألمان من توغل الروس نحو الغرب يزداد بسرعة وبصورة جلية واضحة » .

لا ريب أنه قد أصبح من الواضح أن هتلر قد صدم صدمة قوية إذ وجد أول مرّة في حياته قوة لا ترهبه ولا تخشاه بل تستطيع أن ترغمه على أن يتجافى عن قسم من أرباحه ومطامعه . ومع ذلك فقد عرفت الإذاعة الألمانية كيف تستغل الحالة لإلهاب مخاوف البريطانيين من أن يكون لميثاق عدم الاعتداء ملحق سري يجعل منه محالفة عسكرية ، فتمادى أعداء الاتحاد السوفييتي في بريطانيا وفرنسا يشنون التهم على رأسه .

الاتحاد السوفييتي يصحح حدوده

الحرب الفنلندية

ولم يلبث الاتحاد السوفييتي دون أن سوّى مسألة دويلات البلطي على نحو مسيء جداً لألمانيا ، التي وجدت نفسها مكرهةً على أن تجلب رعاياها من هذه الدويلات لتخليها للدولة التي تنافسها في حلبة السياسة وتعاديها في ميدان النظام الاجتماعي .

وقد كان انضمام هذه الدويلات الى الاتحاد السوفييتي سلمياً شرعيًّا ، إذ ظفرت الأحزاب الشيوعية فيها بكثرة أصوات الناخبين وشكلت حكومات أعلنت النظام الشيوعي بموافقة المجالس النيابية ، ثم قدّمت طلبات بأن تنتظم في سلك الاتحاد السوفييتي فوافق الاتحاد . أنظر البرقية التالية :

« لندن في ٢٢ يوليو ١٩٤٠ : تقول الأنباء الواردة من تالين وكَوْناس وريجا إنه قامت مظاهرات حافلة تأييداً للقرارات التي اتخذتها المجالس النيابية في إستونيا ولتوانيا ولاتفيا بالانضمام الى الاتحاد السوفييتي » .

ومع أن الحكومة البريطانية قد أبت قبلُ أن تكفُلَ استقلال هذه الدويلات (من الخطر الألماني) ومع أنه لم يكن لها فيها نفوذ يُذكر ، فقد رأى تشمبرلان أن ينتهز الفرصة فيستصفي ما في بلاده من ذهب هذه الدويلات وسفنها . ولم يَجُل بخَلَد الحكومة البريطانية أن تعدل عن هذا الموقف إلاّ منذ ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ إذ قدم سفيرها لدى موسكو سير ستافورد كريبس مقترحات معتدلة بعض الاعتدال ، إلاّ أنه ما كاد يقدمها حتى استصفت الحكومة البريطانية ١٣ سفينة سوفييتية أخرى .

ويمّم الاتحاد السوفييتي بعد ذلك شطر الحكومة الفنلندية نخاطبها في أمر حدودها المشتركة التي فُرضت عليه حين نهكته الحرب والمجاعة ، تلك الحدود التي تهدد ميناءه العظيمة ومركز صناعته الهامّ لنينجراد تهديداً خطيراً لقرب ما بينهما . وقد أشار مولوتوف في بيانه الذي ألقاه في ٢٠ مارس ١٩٤٠ أمام مجلس السوفييت الأعلى الى قول التيمس في سنة ١٩١٩

« إذا ألقينا نظرة على المصوَّر الجغرافي وجدنا أن خير منفذ الى بتروجراد هو من البحر البلطي وأن أقصر السبل وأيسرَها هو من فنلاندا التي لا تبعد تخومها عن عاصمة روسيا إلاّ ٣٠ ميلاً ، ففنلاندا هي مفتاح بتروجراد وبتروجراد مفتاح موسكو »

على أن فنلاندا التي تُربي رؤوس الأموال الأجنبية فيها على أربعة أمثال رؤوس الأموال القومية ، والتي لم تكن هي في واقع الأمر أكثر من مستعمرة لشتى الدول المعادية للاتحاد السوفييتي وبخاصة لألمانيا التي يفرض أسطولُها سيطرته على البحر البلطي ، فنلاندا التي استعانت سنة ١٩١٨ بالجيش الألماني على سحق الثورة في بلادها والتي دعت ذلك الجيش الى أن يتخذ من بلادها متبوَّأً للزحف على أراضي الاتحاد السوفييتي . والتي أظهرت أنها لا تتورَّع عن إعادة تمثيل هذه المأساة كلما تاحت لها الفرصة ، فنلاندا التي ما فتئت تسيّر سياستها الخارجية وفق هوى فلهلم شتراسه [1]

فنلاندا التي أثبتت محاكمةُ بعض الجواسيس أن سفارتها لدى موسكو كانت بريداً لهؤلاء الجواسيس ، تنقل رسائلهم في حقيبتها السياسية الى مراكز الجاسوسية في بلادها ، تلك المراكز التي أنشأتها بعض الدول لتدير منها أعمال التجسس والتخريب الصناعي والاقتصادي في بلاد الاتحاد السوفييتي ، فنلاندا هذه أخذت تمطل وتمطل في المفاوضة حتى نالت من الدول الحامية لها بعض المعونة الحربية وحتى حلَّ الشتاء بزمهريره القارس في تلك الأصقاع القطبية التي يتخللها ما لا عداد له من البحيرات الصغيرة والمستنقعات والغابات مما يتعذر معه قيام الحركات الحربية في ذلك الفصل من تلك السنة ذات القُرّ الذي لم تسجّل المراصدُ مثله من قبل . وتقدّمت الحكومة السوفييتية آخر الأمر الى قائد منطقة لنينجراد بأن يدمّر خط مَنَرْهيم وأن يحتل برزخ كاريليا والأراضي اللازمة لتأمين سكة حديد مُرْمَنْسك . وقد كان يراد بهذا العمل اتخاذ الأهبة للدفاع عن بلادها اذا ما هاجمتها ألمانيا غدراً كما حدث

على أن الميثاق الذي كان الاتحاد السوفييتي قد عقده مع ألمانيا قد يسّر للعناصر الرجعية في الدول الرأسمالية الديمقراطية أن يُبرزوا حملة فنلاندا في صورة عمل مناوىء للحلفاء ، فطفقوا ينفخون في أبواق دعايتهم مظهرين الاتحاد السوفييتي مظهر الدولة المعتدية ،

(١) الشارع الذي فيه وزارة الخارجية الالمانية

مذيعين الأحاديث المستفيضة عن جشع السياسة السوفييتية وتحلل الجيش الأحمر الذي زعموا أنه لا يحسن إدارة الآلات الحربيـة التي اشتراها وأنه يبيع أسلحته من العدو بثمن معلوم لكل نوع منها .

لقد وجـد الرجعيون المساكين ولاسيما الفرنسيين منهم ، في تلك الحملة فرصـة ذهبية أرسلتها العناية الالهية لتحويل سير الحرب من كفـاح بينهم وبين ألمانيا الى كفاح بينهما معاً وبين الاتحاد السوفييتي ، فلما انتصر الاتحاد السوفييتي وعقد مع فنلاندا صلحاً كريماً لم يأخذ منها بمقتضاه إلاَّ ماكان قد طلبـه منها قبلُ ، كان من المدهش حقـًا أن تظل بريطانيا فترة متحفظة في الاعتراف بهذا الصلح ، كما ترى في البرقية التالية :

« لندن في ٢٩ مارس : خطب الرفيق مولوتوف في البرلمان السوفييتي بحضور ستالين وفوروشيلوف فقال : لقد كثرت الأمثلة خـلال الخمسة الأشهر الماضية على عَداء فرنسا وبريطانيا للاتحاد السوفييتي ... إن حربنا لفنلاندا لم تكن محضَ كفاح للقوات الفنلاندية إذ أنّا لم نكن نحارب القوات الفنلاندية وحدها . بل كنا نحارب قواتٍ استعمارية مشتركة لطائفة من الدول بينها بريطانيا وفرنسا .

ولقد أعلن مستر تشمبرلن في مجلس العموم يوم ١٩ مارس أسفَـه الشديد على ما أصابهم من خيبة في منع انتهاء الحرب الفنلاندية ، وبذلك كشف العـالم كله عن روحه الاستعماري المحب للسلم »

والواقع أن اهتمام بريطانيا بفنلاندا كل هـذا الاهتمام ، مع أنه ليس لهـا فيها مصالح مباشرة ، مما يحمل على الظن بأنها كانت تفكر حقـًا في استخدامها ذات يوم لأغراض معادية للاتحاد السوفييتي .

وفي ٢٩ مارس ١٩٤٠ : تحدّث مولوتوف الى مجلس السوفييت الأعلى عن « مسألة بسارابيا التي لم يُـقر الاتحاد السوفييتي قط استيلاء رومانيا عليها » .

وقد سلّمت رومانيا مذعنة للإنذار السوفييتي ، فأصلحت الخطأ الذي اقترحته من قبل وسمح لأبناء بسارابيا المنتشرين في أرجاء رومانيا بالعودة الى موطنهم اذا شاءوا ، فتزاحمت الألوف المؤلفـة من العمال الرومانيين أنفسهم على محطـات السكك الحديدية للمهاجرة الى

بسارابيا تخلصاً من عسف الدكتاتورية الرومانية ، فلم يكن من رجال الشرطة الا تشتيتهم بإطلاق الرصاص عليهم .

وهكذا وسع الاتحاد السوفييتي رقعته الى حدوده القديمة على الدانوب ، وأصبح بذلك من الدول التي يحق لها أن تشترك في الإشراف على شؤون هذا النهر المنحدر من أواسط أوربا ، ومن ثمَّ فإنه على رغم أنف الألمان الذين تجاهلوا أنه قد أصبح من دول الدانوب أرسل ممثليه الى المؤتمر وأبى أن يسمح للألمان باتخاذ قاعدة بحرية لهم على البحر الأسود الذي يغسل نحو ألف ميل من شواطىء بلاده والذي تصب فيه أربعة من أكبر أنهار بلاده .

وكان من المدهش أن يثور ثائر حكومة تشمبرلن لاشتراك الاتحاد السوفييتي في هذا المؤتمر ، وأن تزعم أنه بهذا الاشتراك قد أخلّ بالحياد.

***

وقد طفقت هذه الإساءات الى دولة العمال تتوالى الى ما قبيل غزو هتلر لليونان ، إذ عمل تشرشل (وقد خلف تشمبرلن في ١٠ مايو ١٩٤٠) على أن يجتذب تركيا وسائر الدول البلقانية والاتحاد السوفييتي الى صف بلاده .

***

كان على رأس الدول البلقانية رجال مشايعون للناتسي وان كانوا يؤثرون ألاَّ يشتركوا في الحرب ، وقد حاول الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٤٠ أن يعقد محالفات مع هذه الدول ، فأبت بلغاريا ذلك وتحوَّلت الى شبه مستعمرة لألمانيا ، فوجه اليها الاتحاد السوفييتي إنذاراً شبه رسمي وأعلن ميثاق صداقة مع الحكومة اليوجوسلافية القصيرة العمر ، تلته الثورة على حكومة البرنس بول المشايعة للناتسي ، ولم يكن ذلك الاّ مظاهرة سوفييتية في وجه تهديد الناتسي لمصالحهم .

حماقة تشمبرلن ودلاديه

كان الأجدر أن تخفف محنة الحرب من تجني المتجنين على الاتحاد السوفييتي وهو يحارب من أجل بلادهم أيضاً . لكنهم أخذوا يندِّدون بالميثاق الذي كانوا هم السبب في عقده ببقائهم سنوات متتالية يرفضون فكرة الضمان الجماعي ، وزعموا أن الاتحاد السوفييتي قد غدا تابعاً لألمانيا، وأن الحياد السوفييتي إن هو إلاّ تحالف مقنّع ، وهذا مالم يقرفوا به إسبانيا الفاشيّة التي ظفر رجال الحكم فيها بكراسيهم بفضل جيوش هتلر وموسوليني ، ولا السويد التي استمرّت تبيع ألمانيا كل عام ٦ ملايين طن من الصلب الذي يصلح لصنع الأسلحة . وفي الحق أن مسلك وزارة تشمبرلن نحو الاتحاد السوفييتي هو الذي أضفى على حياد الاتحاد السوفييتي ثوب التشيع للمحور . وقد زعموا أن من الإجرام أن يبيع الاتحاد السوفييتي ألمانيا بعض ما كان يفضل من حاجته ، مع أن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قد لبثتا حتى الهجوم على بيرل هاربور تبيعان سلعهما الى اليابان حليفة ألمانيا .

لقد كانت سياسة تشمبرلن ودلاديه هذه ممعنة في الحماقة، فقد أوغرت صدور الشيوعيين في بلاد الحلفاء على حكوماتهم فجعلتهم في الأشهر الأولى من الحرب يتراخون في معاونتها، إذ أن حكومتي تشمبرلن ودلاديه كانتا تحاربان الألمان متكرهتين ، ولأن هؤلاء الشيوعيين كانوا يشفقون أن ينقلب اتجاه سير الحرب فيتناسى الحلفاء ما بينهم وبين المحور ويلتمسون الخلاص من ورطتهم بمؤازرته في محاربة الاتحاد السوفييتي ، وبذلك تكون جهود العمال في المصانع الحربية قد سخرت لتحطيم الاتحاد السوفييتي الذي يعُدّه الكثيرون منهم وطناً روحيًّا وضماناً ماديًّا لهم . ولم يكن الشيوعيين مخطئين في هذا التخوف كل الخطأ ، فاذا كان انهيار فرنسا وحلفائها هذا الانهيار السريع العجيب لم يتح لها فرصة للانضمام الى ألمانيا ، فليس معنى ذلك أن رجال المال والحكم فيها لم يكونوا راغبين في هذا الانضمام . واذا كانوا قد حالفوا هتلر على أوطانهم وسهلوا لجيشه اجتياحها كي يقضي على الحركة الشيوعية فيها ويعصمهم من أن تصير ممتلكاتهم ممتلكات قومية فإنهم لم يكونوا ليترددوا لحظة في محالفته على الاتحاد السوفييتي حصن الشيوعية العالمية ومبعث الخطر الدائم على ثرواتهم وامتيازاتهم

سقوط أوربا الغربية

كان التفكير الميونيخي قد أوهن بناء الدول الديمقراطية فما كاد هتلر يأمر جيوشه بمهاجمتها حتى أخذت تتهاوى كما يتهاوى رماد لفيفة التبغ ، دولة تلو أخرى . وتعوّد الناس أن يقرءوا أمثال هذه البرقيات :

وارسو في أول سبتمبر ١٩٣٩ : بدأت الحرب في منتصف الساعة السابعة صباحاً على جميع الحدود الألمانية البولونية وعلى الحدود السلوفاكية أيضاً .

برلين في ٢٧ سبتمبر ١٩٣٩ : أصدرت القيادة الألمانية العليا بلاغاً رسمياً جاء فيه أن قائد القوات البولونية في وارسو قد عرض تسليم المدينة والحامية .

بروكسل في ١٠ مايو ١٩٤٠ : اجتازت القوات الألمانية الحدود (في بلجيكا وهولاندا)

لندن في ١٥ مايو ١٩٤٠ : أذاع القائد العام الهولاندي منشوراً يدعو فيه الجنود الى وقف القتال .

لندن في ٢٨ مايو ١٩٤٠ : قال مستر تشرشل في مجلس العموم « ليعلم المجلس أن الملك ليوبولد ملك بلجيكا أرسل أمس رسولاً الى القيادة الألمانية طالباً وقف القتال في الميدان البلجيكي ... وكفّ الجيش البلجيكي عن مقاومة الغزو في الساعة الرابعة من صباح اليوم .

باريس في ٩ ابريل ١٩٤٠ : جاء من نيويورك أن محطة إذاعة كولومبيا قطعت برنامجها في الدقيقة المتممة للأربعين بعد منتصف الليل لتذيع أن الألمان اجتاحوا الدانمارك .

لندن في ٩ أبريل ١٩٤٠ : يقول نبأ من امستردام إن ملك الدنمارك أصدر بياناً . . . دعا فيه الشعب الى الهدوء .

أوسلو في ٩ ابريل ١٩٤٠ : أذاع راديو أوسلو أن القوات الألمانية نزلت الى الموانى النروجية في الساعة الثالثة من صباح اليوم .

لندن في ١٠ يونيو ١٩٤٠ : أعلن رسمياً أن القوات الفرنسية والبريطانية انسحبت من شمال نروج . وقد وصل ملك نروج ورجال حكومته الى بريطانيا .

برلين في ٥ يونيو ١٩٤٠ : أذاع هر هتلر منشوراً أعلن فيه وقوع هجوم ألماني جديد فقال إن الفرق الألمانية وأسراب الطائرات استأنفت القتال صباح اليوم .

روما في ١٠ يونيو : أعلن راديو روما بعد ظهر اليوم أن كونت تشيانو سلّم التبليغ التالي الى سفير فرنسا « إن جلالة الملك الامبراطور يصرح بأن ايطاليا تعدّ نفسها في حرب مع فرنسا ابتداءً من غدٍ ١١ يونيو .

باريس في ١٣ يونيو : أُلصقت على جدران المنازل في باريس إعلانات جاء فيها أن عاصمة فرنسا مدينة مفتوحة وأن جميع التدابير اتخذت لتأمين سلامة السكان وتموينهم .

لندن في ١٧ يونيو ١٩٤٠ : أذاع مارشال بتان اليوم رسالة الى الأمة الفرنسية قال فيها « وإني أخبركم اليوم بقلب محطم كسير ، أنه لا بدّ من وقف القتال . ولقد خاطبت العدو ليلة أمس لأسأله هل هو مستعد لأن يبحث معي الوسائل التي تضع حدًّا للقتال » .

لندن في ٢٣ يونيو ١٩٤٠ : تقول وكالة الأخبار الرسمية الألمانية أنه أمضيت شروط الهدنة بين فرنسا وألمانيا في غابة كومبيني في الساعة السادسة والدقيقة المتممة للخمسين من مساء أمس .

وهكذا انهارت بولونيا قبل مضي شهر ، وهولندا قبل أسبوع ، والدنمارك قبل ساعة ، من الهجوم عليها ، وفرنسا قبل أسبوعين ، فرنسا التي كانت تعدَ نفسها ويعدّها معظم الناس أصرم دول الأرض وأقواها بأساً ، والتي تحصنت بخط ماجينو أمنع حصون العالم وأكثرها حظًّا من مستحدثات فنون البناء العسكري .

هذه الهزائم الماحقة التي منيت بها مختلف الدول الرأسمالية الديمقراطية في أوربا هي ثمار ما غرسته أيدي تشمبرلن ودلادييه ومن لفّ لفهما . وهنالك خمسة عوامل تآزرت هي وغيرها في إنزال هذه الهزائم بها ، وهي :

١ — مظاهرة الحكومات الديمقراطية لهتلر في استلحاقه النمسا ، وغزوه تشكوسلوفاكيا ، وقد كان ذلك رغبةً منها في حمله على الاتجاه باعتداءاته نحو الشرق .

٢ — تقصير تلك الحكومات في تسليح بلادها اتكالاً على أنه يزمع محاربة أوربا الشيوعية لا أوربا الرأسمالية ، مع أن قراءة كتاب « كفاحي » بتمعن ومراقبة الحوادث

من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٩ يريان بوضوح أن الحرب كانت آتية على بريطانيا لا ريب فيها .

٣ — تجافي الحكومات الديمقراطية عن سياسة الضمان الجماعي ، مع أن هتلر كان يسعى الى تدويخ العالم طرًّا ، فكان الواجب أن يجتمع العالم لمقاومته .

٤ — مناصرة رأسماليي البلدان الديمقراطية لهتلر لينصرهم على الأحزاب الشيوعية التي كان يطرد نموها في بلادهم .

٥ — فشو الاعتقاد في فرنسا وبلجيكا وغيرهما بأن انجلترا تتبع معهم الأساليب التي تتبعها مع مستعمراتها ، وأنها تضحي بآخر جندي من جنودهم في حين هي تضن بأي جندي من جنودها فلا ترسل منهم الى حومات الوغى غير عدد قليل ثم لا تلبث أن تستردهم اذا ما جدّ الجِد .

وهكذا سقطت القارة الأوربية بين مخالب النَّسر الألماني ، فأما الانجليز فقد قبعوا خلف النفق الإنجليزي (بحر المانش) مطمئنين الى أن هتلر لو أراد أن يغزوهم في عقر دارهم لاحتاج الى ١٠ أطنان من السفن لكل جندي من جنود الغزو ، ولما كان لا يملك هذا القدر من السفن فقد اجتزأ بمحاصرتهم بألغامه وغواصاته ومغازلتهم بطياراته . ودام ما يسمى معركة بريطانيا بضعة أسابيع قتل الألمان فيها ألوفاً من الأطفال والنساء ، فصبرت بريطانيا على هذا العبث ، ولم يكن في وُسعها إلاَّ أن تصبر ، وتحملت في صمت ما أصابها من خسارة ، عالمة أنها تربح الوقت والوقت يلد العجائب . وقد كانت الأعجوبة أخيراً ، فقد حمل الرأسماليون الألمان ، هتلر على أن يوقّع على الأمر بالانقضاض الغادر على الاتحاد السوفييتي ، فكان ذلك بمثابة التوقيع على أمرٍ بموته وتحطيم طغيانه .

ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه

وتنفّس الانجليز الصُّعَداء

إذن فقد كان كذباً ما زعمه أعداء الاتحاد السوفييتي من أن الميثاق السوفييتي الألماني ينطوي على نصوص سرية تجعل منه تحالفاً لا محضَ ميثاق بالإمساك عن الاعتداء ، وإذن فقد كان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي قد استعاد ما استعاد من أراضيه المغتصبة ، برضا الألمان وموافقتهم والتواطؤ معهم ، وكان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي

قد عدَّل حدودَه مدفوعاً بشهوة الفتح والاستعمار ، لا تأميناً لبلاده من حرب مبيّتة لم يكن أمرها بخافٍ على فطنته .

وإذن فقد كان كذّاباً ذلك الطيارُ الجريء في الكذب ، لِندْبِرْج ، الذي اعتمد تشمبرلن أيامَ ميونخ على تقريره القائل - بضئالة قوة الطيران السوفييتي - في مخادعة الشعب البريطاني ، وإقناعه بحكمة إبعاد الاتحاد السوفييتي عن مؤتمر المتآمرين ، وبتسليم تشكوسلوفاكيا إلى ألمانيا ، وقد فضح نفسه حين قال في أول يوليو ١٩٤٠ أي عقب الانقضاض الألماني الغادر على الاتحاد السوفييتي « لقد كنت أوثر مائة مرة أن أرى بلادي في حِلْف مع ألمانيا !!! على أن أراها تحالف القسوة والألحاد والبربرية التي في روسيا » .

الاستعماريون والفاشيون

في بريطانيا

وقد ألقت الحكومة البريطانية القبض في أول الحرب على سير أُزْوالد موزلي الذي كان قد رُشّح لأن يلعب دور كويسلنج في بريطانيا ، ثم أطلقته أخيراً . وما تزال بريطانيا تعِجّ بفريق من الرأسماليين ذوي النفوذ وأُجرائهم ، يرتسم حب المال في نفوسهم المريضة في صورة كراهة الاتحاد السوفييتي كراهة تتجاوز كل حد وتحجب كل شيء ، تحجب مصلحة الوطن وخير الجنس البشري ، فهم يشعرون أنهم رأسماليين أكثر منهم بريطانيين وأناسيّ ، وهم يرَون أن انتصار النازية على بلادهم أهون من صيرورة ألمانيا الى الشيوعية . لذلك ظاهروا الرجعية على التقدم في كل ما شهد العالم من أحداث ، فلم تكن ثمة مشكلة من مشاكل الشؤون العالمية لم يكن مسلكهم بأزائها مثيراً للخجل والاشمئزاز . وقد أخذوا في عمامهم ورعونتهم يدفعون ببلادهم الى روما ، ثم الى ميونخ وبرشتسجادن ، ثم الى الحرب التي كان من الميسور لهم اتقاؤها بمحالفة الاتحاد السوفييتي قبل سنة ١٩٣٩ ، أولئك هم مرضى القلوب الذين قفز البهلوان « رِهس » من طائرته لينزل بين أحضانهم حاملاً رسالة عبيد العجل الذهبي في ألمانيا الى عبيده في بريطانيا . ونذكر في طليعة هؤلاء الرجعيين « جماعة السياسة الامبراطورية » Imperial Policy Group التي تكوّنت سنة ١٩٣٣ من بعض أعضاء مجلسي

الوردات والعموم وغيرهم ، وهي تصدر صحيفة تدعى صحيفة الشؤون العالمية Review of World Affairs كانت هذه الجماعة قبيل نشوب الحرب تطالب بإلغاء المادة الخاصة بالعقوبات من عهد عصبة الأمم .

وفي أغسطس ١٩٣٩ (أي قبل الحرب ببضعة أيام) أنكرت هذه الجماعة إمكان أن تستعر حرب في أوربا ، وقالت « إن الإنتاج البريطاني للطائرات هو على الأرجح أعظم إنتاج من نوعه في العالم » .

وعند ما أشفت فرنسا على السقوط طفقت هذه الجماعة تكيل المدح لفيجان وبتان . فلما سقطت فرنسا تلك السقطة المنكرة طفقت الجماعة تكيل القدح لحكومة الجبهة الشعبية التي كانت تحكم فرنسا قبل الحرب . ومما جاء في صحيفتها « ليس ثمة شيوعي بارز إلا وهو معروف جيداً أنه أجير للألمان » .

وفي خريف ١٩٤٠ نشرت تلك الصحيفة في مكان بارز وبعناية ظاهرة عرض هتلر للصالح ونوّهت بقلة خطر القارة الأوربية فيما يتصل بمصالح بريطانيا الهامة . وأبدت رجاءها أن يعامل هتلر البلاد المقهورة بكرم وفطنة .

وظلت بين الفينة والفينة تنصح بإعادة العلاقات الودية مع فيشي وتبدي أسفها على اعتراف بريطانيا بديجول (في ديسمبر ١٩٤٠)

وكانت تقول إن الاتحاد السوفييتي ، وهو يضم نحو ٢٠٠ جنسية ويجمع هتيتاً من اللغات والأديان ، سينهار تحت وقر الضربة الأولى ، وأن الجيش الألماني سيمضي فيه مضيّ السكين في الزبد .

فلما وقف الجيش الأحمر هجوم الألمان في ممولنسك في أغسطس ١٩٤١ زعمت تلك الصحيفة أن الألمان هم الذين وقفوا ذلك الهجوم بمحض اختيارهم ليتفرغوا الى عزل لنينجراد وفتح أكرانيا

وقالت في أكتوبر ١٩٤١ « يجب ألا نعبأ كثيراً بسياسة الأرض المحروقة فإن ما يقال بشأنها مبالغ فيه كثيراً » .

وكتبت في أواخر نوفمبر ١٩٤١ تعزو فترات الوقوف في التقدم الألماني الى « المسائل الفنية المتصلة بالمواصلات » .

ومن قولها : «إن موسكو وروستوف ستسقطان ولا ريب » فلما استعاد الجيش الأحمر روستوف وصدّ الألمان عن موسكو ، وتقهقر هؤلاء في ديسمبر ، تحدّثت الصحيفة عن «الثمن الفادح » الذي دفعه الروس ، فلما اطّرد تقدمهم في يناير ، زعمت انهم أحضروا قوات احتياطية من سيبيريا .

وفي يونيو ١٩٤٢ نشرت الصحيفة حديثاً تقلل فيه من شأن محالفة بريطانيا وروسيا . فمن قولها : « قد يطرد الروس من الفولجا والأورال ويفقدون اتصالهم بالقوقاز في الجنوب وبمرمنسك وأركنجل في الشمال وفلادفستك في الشرق دون أن يكون في ذلك هزيمة لبريطانيا وأمريكا » واستمرت الصحيفة في أضاليلها التي لم تؤيدها ببرهان ، فقالت « وروسيا — مع كل المزاعم القائلة بعكس ذلك — متوقفة كل التوقف على ما يصلها من الأمداد الخارجية التي لا سبيل اليها الاّ من ثلاث طرق » مهددة بالبديهية . هذا ما زعمته تلك الصحيفة بعد سنة من اشتراك الاتحاد السوفييتي في الحرب ، في وقت كان ينتج فيه من السلاح والعتاد مقادير هائلة ولا يتلقى من الخارج الاّ الشيء الطفيف الذي يبدو أنه وضع قسماً منه في المخازن ليكون احتياطيّاً فلم يكن هو العامل الأول فيما ظفر به الجيش الأحمر من انتصار على هتلر وعلى أوربا الرأسمالية معه . وقد نشرت الصحف في ٢٠ اكتوبر ١٩٤٣ أي بعد مرور أكثر من عام على ذلك الوقت ، البرقية الآتية :

« لندن في ١٩ أكتوبر : جاء من استانبول أن ضابطاً نمسويّاً وصل الى تركيا أخيراً قال ما خلاصته : أن ٩٨ في المائة على الأقل من غنائم الحرب التي استولى عليها الألمان من الروس خلال الستة الأشهر الماضية ، من صنع الروس أنفسهم . لذلك يعتقد الضباط الألمان أن الروس لا يستخدمون الأسلحة البريطانية التي حصلوا عليها بموجب قانون الإعارة والتأجير ، بل يحتفظون بها لغرض غير معروف ، ولا يبعد أن يكونوا قد اختزنوها للشتاء » .

وقد دأبت هذه الصحيفة على التهوين من قوة الاتحاد السوفييتي الحربية وعلى إطلاق الشاعة ذات الهوى عنه ، كحديث خرافة القائل بأن الفصائل السوفييتية انما تساق الى الحرب سوقاً ، فقد نشرته على النحو الآتي : « علمنا ان التشكيلات السياسية قد وضعت خلف

الصفوف الروسية ، وقد عهد اليها بأن تعمد الى العمل المباشر في الجنود أو الوحدات التي يبدو عليها أقل رخاوة أو عجز أو تردد » .

وتحدثت الصحيفة كذلك عن ٠٠٠ ر ١٥٠ أكراني قد انتظموا في جيش يقاتل الروس تحت قيادة أمير الاي وصفته بأنه من دعاة التحرير الأكراني . ويعلم العالم أن الاتحاد السوفييتي هو الدولة الوحيدة التي لم يكن فيها طابور خامس . أجل ، كان في برلين وغيرها من العواصم الاوربية مهاجرون من الحرس الأبيض الأكراني ، وكانوا على اتصال بالأوساط الرجعية في لندن . وقد أريد منهم أن يقاتلوا الاتحاد السوفييتي توفية لما أنفق عليهم من المال ، ولكن هؤلاء كانوا على قلة عددهم ، غير جديرين بأن يسموا أكرانيين . أما الأكرانيون الحقيقيون فقد باروا الروس في مقاتلة العدو .

وهنالك صحيفة مشئومة أخرى . إلا أنها أوسع انتشاراً من الريفيو ، أخذت تحمل على المعاهدة الأنجلو سوفييتية حتى بعد عقدها ، تلك هي « كاثوليك هرالد » ، انظر الى قولها في يناير ١٩٤١ في تعليل بطولة الجنود الحمر في حرب الشتاء « إن الانقياد لسلطة صارمة وللملابسات العنيفة التي تكتنف حملة الشتاء لما يرحب به الروح الروسي على أنه ضرب من التقشف الذي يشاكل حبه للتعذب » . فهي ترى أن أبناء الاتحاد السوفييتي يستلذون الجوع والشظف والجراح والخصر حتى الموت (قرس البرد) .

وهذه الصحيفة ، التي سكتت عن جرائم ايطاليا وألمانيا في بلادهما وفي أوربا ، وعن دعايتهما الخبيثة في انجلترا ، كانت لا تفتأ تعيد الى الذاكرة حوادث قديمة مزعومة وتتحدث عن : النزاع الذي لا يقبل صلحاً بين المسيحية والشيوعية التي أوحاها اليهودي الألماني كارل ماركس .

وهنالك جماعات وأفراد شتى لم ينفكوا عن تسويء سمعة الاتحاد السوفييتي والتشكيك في مقدرته الحربية ، فأخذوا يشكون من أن الوفدين البريطاني والأمريكي في موسكو لا يمنحان كل ما يحتاجان اليه من معلومات وبيانات ، مستدلين بذلك على أن الاتحاد السوفييتي غير أهل لأن يعوّل عليه ، ثم أخذوا يحتجون على ما يسمونه تغلب الجناح الأيسر في الإذاعة البريطانية ، لأن هذه الاذاعة كانت تدعو شعوب أوربا الى الثورة على مستعبديها .

ومن ذلك قول صحيفة إيفننج ستاندرد في ٢٩ مايو ١٩٤٢ « يجب ألاّ نضع جميع بيضنا في السلة الروسية » .

هؤلاء القوم لم يكونوا أعداءً للاتحاد السوفييتي وحده ، بل للشعب البريطاني كذلك ، بل هم أعداء الانسانية جمعاء وأعداء المعاني الانسانية السامية جميعاً ، وهم بمحاولتهم أن يفتّوا في عضد الاتحاد السوفييتي قد أظهروا الرأسمالية البريطانية بأنها لا تقل عن الفاشية خطورة ، وبخاصة بعد أن أوشكت الفاشية الألمانية أن تختفي من الوجود الى حيث لا رجعة .

خذ مثلاً موقفهم من مسألة الجبهة الثانية فقد ظلوا يمانعون في فتح تلك الجبهة تصريحاً وتلميحاً راغبين في ترك الشعب السوفييتي يتحمل وحده عبء الضغط الألماني ، بل لقد طلبوا اليه أن يعلن الحرب على اليابان وأن يمسك عن الزحف الى البلقان . لقد قدّموا اليه من المطالب أكثر مما قدّم اليه من الأسلحة .

نشرت سنداي تيمس في ١٩ يوليو ١٩٤٢ تقول « ليس ثمة شيءٌ في محله مثل فتح الجبهة الثانية إذا — ولكن فقط إذا — أمكن جعلها متسعة النطاق ناجحة ، وإلى أن يكون ذلك، قد يكون من الممكن حقاً سحق الروح المعنوي الألماني بغارات تدمير بالجملة» .

يسمع البلاشفة هتلر يسخر علناً من تهديده بجبهة ثانية ويرونه يسحب خيرة فرقه الفنية من فرنسا وبلجيكا وغيرهما ليقذفهم بها ، ويعلمون أن بريطانيا قد احتفظت في جزائرها « خوف الغزو الألماني » بملايين من الجند يتلقون منذ قرابة ٥ سنوات أكمل تدريب وأوفر تسليح ، وهم يعلمون أن عهود بريطانيا ومصلحتها الخاصة كانت تحتم عليها أن تفتح الجبهة الثانية قبل نهاية عام ١٩٤٣ ، ثم يسمعون رجال الطابور الخامس في انجلترا ينصحون بالتريّث في فتحها ، فيتساءلون : اذا كان هذا الجيش اللَّجِبُ لا يتحرّك لمقاتلة الألمان فمن عسى أن يقاتل ؟ إن للدول المتحالفة ، التفوق التام على الألمان في الجوّ ، وبخاصة بعد أن قضى الاتحاد السوفييتي على معظم أسطولها الجوي ، ولها السيادة في البحر ، وبخاصة بعد أن ألقى الأسطول الايطالي إليها بالمقاليد ، ولها في أوربا المحتلة بالألمان ملايين من الشيوعيين والوطنيين متأهبين لمناصرتها على الفاشيين ، وهذا ما برهن عليه بدمائهم أولئك

الخمسمائة من الرجال والنساء الذين ضحوا بأرواحهم في ديبب عند ما حسبوا غارة الكوماندو عليها غزواً جدّيـًا للقارة .

ألا ما أقسى ما سيحكم التاريخ على أولئـك الذين يثبطون الهمم في الأوقات العصيبة ، فاذا كان حكم التاريخ لا يهمهم فما أشدّ ما سيعصف بهم حكم الحوادث .

نجاح الاقتصاد السوفييتي

بذل الاتحاد السوفييتي في السنوات الأخيرة جهده في دعم السلام العالميّ . ومن البديهيّ أن يحرص الاتحـاد السوفييتي على استتباب السلام وأن يتكالب أعداؤه على الحرب ، لأنه ينال في السلم ما لايطمحون الى نيله إلاّ بالحرب ، فهو ناجح في أعماله ، ولديه الكثير من أسباب النجـاح ، وهم مخفقون متورّطون في الضيق ، وقد فحصوا جميع السبل وحاولوا ما استطاعوا فلم يوفّقوا لحلٍّ معقول ولم يهتدوا الى بصيص من نور ، فالخيبة محتومة عليهم ما استمسكوا بطرقهم الاقتصادية العتيقة .

فالإنتاج الموحّـد الواسع النطاق الذي ينظّـم — على ضوء الاحصاءات — وفق خُـطط مرسومة لا يراعي فيها إلاّ مصـلحة المنتجين ، والذي ينفّـذ بأقل الكُـلـَف تحت قيادة أمهر الإخصائيين ، هذا الإنتاج المنظم في الاتحاد السوفييتي لا يقابله في البلاد المعادية إلاّ فوضى من الإنتاج المتقهقر الكثير الكُـلـَف لا تراعى فيه حاجة المستهلك بمقدار مايراعى جشع المنتج .

ولذلك نجد الاتحـاد السوفييتي يزيد كل عام من أجور عماله وموظفيه في حين يخفضها أعداؤه ، صراحةً أحياناً وتحت ستار تضخم النقد وخفض سعر العملة في أحيان أخرى .

ولا نجد فيه متعطلاً من الأغنياء ، ولا من الفقراء ، فإن لكل فرد من أفراده حقّ العمل وعليه واجب العمل . والحال على عكس ذلك في أوربا وأمريكا ، إذ قد بلغ عدد المتعطلين فيهما قبل الحرب زُهاء ٣٧ مليوناً كانوا يعانون أشد الآلام ويتحملون أشق المتاعب .

ولا نجد فيه مكاناً للجهل والأمية ، فإن عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا فيه يُربى على مجموع ما في أوربا الرأسمالية . ولا يعزُب عنا أن هتلر قد أمر بنقص الطلبة في الجامعات

الألمانية الى نصف ما كانوا عليه في السنوات التي مضت .

ثم هو لا يَشغَل أبناءَه التعصبُ الديني والحزازات الجنسية وفوارق الطبقات وما إلى ذلك ، بل هم يشتغلون جميعاً رجالاً ونساءً ، مسلمين ونصارى ، كأنهم أسرة واحدة ترفرف عليها السعادة ، على حين تعجّ البلاد الأخرى بالتباغض والتحاسد والتمرد والانتقاض .

مشروع خمس السنوات الثانية

وقد لخصت صحيفة موسكو التي تصدر بالانجليزية ، في يوم ٦ فبراير ١٩٣٩ نتائج برنامج خمس السنوات الثانية (سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٧) ومنه يؤخذ أنه :

بلغ الإنتاج الصناعي الجماعي (الذي تديره الدولة والهيئات التعاونية) في نهاية سنة ١٩٣٧ — ٩٩٫٨ في المائة من إنتاج الاتحاد السوفييتي كله ، وبلغ الانتاج الزراعي الجماعي ٩٨٫٦ في المائة ، وكان ٩٠ في المائة من جرّارات الحرث وما اليها ، مما أنتجته البلاد في خلال برنامج خَمْس السنوات الثانية . وقد نجح هذا البرنامج نجاحاً لم يكن مقدّراً له ، وذلك على الرغم من المخرّبين الذين ألحقوا بالإنتاج أضراراً بليغة .

وقد ازداد عدد العمال والموظّفين في خلال السنوات الخمس ١٧٫٦ في المائة عما كان ، وارتفع مجموع الأجور ١٥٠ في المائة ، وازداد ما تنفقه الدولة في خدمة الجمهور (التعليم والصحة الخ) من ٤٫٤٠٠ مليون روبل الى ١٤٫٠٠٠ مليون وارتفعت أجور الفلاحين الجماعيين ٣٥٠ في المائة في ٤ سنوات (من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٧) . وبلغ إنتاج السلع الاستهلاكية ضعفين ، وفي بعضها ٣ أضعاف مثله من سنة ١٩٣٢ ، وازداد عدد التلاميذ في المدارس الأولية والثانوية من ٢١٫٣ مليوناً الى ٢٩٫٤ مليوناً وبلغ عدد طلبة الجامعات والمعاهد العالية ٥٥٠٫٠٠٠ طالب .

ويشير التقرير الى أن الاتحاد السوفييتي قد أصبح مستغنياً في الشؤون الاقتصادية ، وهو يزوّد اقتصاده القومي وقواته الدفاعية بكل ما يلزمهما من الضروريات .

وقد بلغ إنتاج الصناعة في سنة ١٩٣٧ — ٣٧١ في المائة بالقياس على ما كان عليه سنة ١٩٢٩ . أما الصناعة التي تنتج على نطاق واسع فقد بلغت ٧ أمثال ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى .

خمس السنوات الثالثة

كان ثمن المنتجات الصناعية في سنة ١٩٣٧ (مقدَّرة بحسب أسعار سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ ٩٥ر٥٠٠ مليون من الروبلات). وقد وضع برنامج السنوات الخمس الثالثة على تقدير أن يرتفع هذا الرقم الى ١٨٠ر٠٠٠ مليون أي بزيادة ٨٨ في المائة أي بمعدل ١٣ر٥ في المائة سنويًّا ونذكر على سبيل المثال أنه كان المقدر أن يصل إنتاج المواد الآتية في سنة ١٩٤٢ الى المقادير الآتية :

وسائل الإنتاج	١١٢ر٠٠٠ مليون روبل	أي بزيادة ١٠٣ في المائة عما كان عليه سنة ١٩٣٧
سلع للاستهلاك	٦٨ر٠٠٠ » »	» ٦٩ » »
المواد الكيميائية	١٣ر٤٠٠ » »	» ١٢٧ » »
الفحم	٢٣٠ مليون طن متري	» ٨١ » »
(الحديد) الزهر	٢٢ » »	» ٥٢ » »
الصلب	٢٧½ » »	» ٥٦ » »
أسياخ الصلب rolled	٢١ » »	» ٦٢ » »
الأسمنت	١٠ » »	» ٨٣ » »
السكر المكرر	٣½ » »	» ٤٤ » »
الأحذية الجلدية	٢٣٥ مليون حذاء	» ٤٣ » »
مأكولات محفوظة	١ر٨٠٠ » علبة	» ١٠٦ » »
القوة الكهربائية	٧٥ر٠٠٠ » كيلووطساعة	» ١٠٦ » »

ويرى من ذلك أن صناعة (بناء) الآلات قد أعطيت من العناية أكثر في الجملة مما أعطيت الصناعة في مجموعها ، فكان المقدر أن يزداد إنتاج الطوربينات في الخمس السنوات الثالثة ٣٨٠ في المائة والمراجل البخارية ٣٦٠ في المائة ، كما أنهم كانوا يعملون على إيجاد «باكو» أخرى لاستغلال حقول زيت الوقود بين نهر الفولجا وجبال الأورال أحسن استغلال مع تزويد البلاد بمخازن للزيت وأنابيب لتوصيله إليها . أما الصناعات الكيميائية فكان المقدَّر أن تكون من أعظم الصناعات شأواً ، حتى أصبح من الممكن أن يسمى مشروع السنوات الخمس الثالثة بمشروع السنوات الخمس الكيميائي ، فقد روعي فيه زيادة حمض الكبريتيك ، وحمض النيتريك والأمونيا التركيبية والألياف الاصطناعية زيادة جسيمة .

وكان من المقدّر أن تزداد قيمة الإنتاج الزراعي من ١٩٫٨٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٣٠٫٢٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة ٥٣ في المائة ، وأن يصل معدّل المحصول السنوي من الحبوب الى ١١٥ مليون طن (أي نحو ٧٧٥ مليون أردب) بزيادة ٢٧ في المائة عن معدّل السنوات الخمس الثانية ، وأن يبلغ إنتاج السكر ٣٠ مليون طن أي بمعدّل ٢٠ طنًا في الهكتار (والهكتار ١٠٫٠٠٠ متر مربع أي ما يقرب من ٢ ½ فدان) وإنتاج القطن الخام ٣٫٣ مليون طن بمعدّل ١٫٩ طن في الهكتار من الأراضي التي تروى بالآلات (وليس بالمطر) وألياف الكتان ٨٥٠٫٠٠٠ طن بمعدل ٠٫٤٦ طن في الهكتار وأن يزداد عدد الخيل ٣٥ في المائة والأبقار ٤٠ في المائة والخنازير ١٠٠ في المائة والغنم (الضأن والماعز) ١١٠ في المائة ، وأن تكمل إدارة الزراعة على نمط صناعي الى أقصى ما يستطاع وأن تمد خطوط جديدة في السكك الحديدية طولها ١١٫٠٠٠ كيلو متر ، وأن يزدوج ما طوله ٨٠٠٠ كيلو متر من الخطوط المفردة وأن تدار السكك الحديدية إلى حدٍّ كبير بالكهرباء وأن يكمل مد الخدمة التليفونية الى القرى والمزارع الحكومية ومحطات الجرارات الزراعية وأن يدخل التليفزيون في عدّة مدن كبيرة .

* * *

وكان من المقدّر أن يزاد عدد العمال والموظفين ١٧ في المائة ومعدّل الأجور ٣٥ في المائة وأن يزاد ما تنفقه الدولة على التأمين الاجتماعي والتعليم والصحة وما اليها من الخدمات الاجتماعية من ٣٠٫٨٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٥٣٫٠٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة تقرب من ٧٠ في المائة . وإنما يزداد دخل الفلاحين الجماعيين نتيجة لازدياد الانتاج ، لازدياد غلة المحاصيل ونتاج الحيوان .

وكان من المقدّر أن يزداد عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا الى ٦٥٠٫٠٠٠ وأن يزاد عدد دور السينما ٦ أضعاف وأن تزاد المنتديات والمكتبات والمستشفيات وملاعب الرياضة البدنية ، وأن يُبنى من المنازل والمنشآت الصناعية ما مساحته ٣٥ مليون متر مربع ، وأن يزاد حوانيت البيع بالتجزئة المملوكة للدولة والهيئات التعاونية ٢٦ في المائة .

وكان من المقدّر أن يزداد الدخل القومي نحو ٨٠ في المائة .

الاستعداد الدفاعي

هذه صورة مصغرة من النجاح الذي بلغه الاتحاد السوفييتي في شؤونه الاقتصادية . ومنها نرى أنه يسير باطراد الى الأمام ثابت القدم راسخ اليقين متخطياً جميع العقبات ، لا يرغب في أكثر من أن يخلو الى مرافقه المختلفة فينميها ويهذبها ليكفل الهناءة لأبنائه وحفدته . وهو أبعد الدول نزوعاً عن محاربة مخالفيه ، ولا سيما أنه يؤمن بأن نظامهم الاقتصادي عتيق هرم يزدهف الى الموت ازدهافاً ولا مفرّ له من مواجهة نهايته المحتومة في وقت قريب . على أن السلام الذي يبتغيه الاتحاد السوفييتي إنما هو سلام «لاميونيخي» إذ أن السلام عنده شيء آخر غير البله . وهو وإن لم ينتج المدافع بدل الزُبد ، لا يستغنى بالزُبد عن المدافع ، وفي الحق أنه كان الدولة الوحيدة التي استطاعت أن تنتج وفراً من الزُبد والمدافع . وهل كان في إمكانه أن يغفل عن التأهب وهو يرى شعوب المحور تجنّد اقتاله وهو يسمع الفاشيين المجذوبين يكشحون له بالعداوة ويتهدّدونه في صيحاتهم الهستيرية ويرى مهرّجي نورمبرج[1] يستنفرون سائر قوات العالم الرأسمالي لمؤازرتهم عليه ويسألون الحلفاء أن يتغاضوا عن جرائمهم الاستعمارية ثمناً للحرب الصليبية المنتظرة .

لقد طالما سمع البلاهفة بذاءة النازي وأشياعه ، وكانوا يعلمون أن تشمبرلن ومعيّته يبغضونهم ويعملون على عزلهم وتأليب الدول عليهم ، وأنهم إذا كانوا لا يتواقحون معهم تواقح النازيين فليس ذلك إلاّ لأن أسلوبهم يباين أسلوب النازيين . وكان رد الاتحاد السوفييتي على هذه البذاءة وتلك البغضاء أن أمعن في التسلح واقتطع جانباً كبيراً من أمواله وجهوده لتقوية منشآته الدفاعية لكي يكون على الذين تحدثهم أنفسهم بالاعتداء أن يفكروا طويلاً قبل التورّط فيه وأن يكونوا على ثقة أنه « لن يسمح للخنازير أن تدنس حديقته » . فهذا الاستعداد الحربي ليس دليلاً على نية الغزو والاعتداء ، بل هو دليل على الرغبة في التجرد للتقدم السلمي ، وهو كذلك دليل على مدى السموّ الذي ارتفع اليه العلم السوفيتي والفن السوفييتي والصناعة السوفييتية .

....

(١) البلد الذي كان النازيون يعقدون فيه مؤتمرهم كل عام

هتلر ينطح الصخر

ولو أن هتلر كان يعلم اذ ذاك ما علمه بعد فوات الوقت لما أقدم على نطح تلك الصخرة الصلدة

كناطح صخرةً يوماً ليوهيَها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعِلُ

ولـكنه كان يجهل ويتجاهل . وقد أكثر من مخادعة الناس حتى خدع نفسه ، فحفزه طمعه الأشعبي في نشوة انتصاره على الدول الغربية المتفسخة ، الى أن يتجه نحو مشرق الشمس ، فأعدَّ غزوته الغادرة بمثل النذالة التي أعدَّ بها الايطاليون غزوتهم لبلاد اليونان . واختار يوم ٢٢ يونيو للبدء بها تشبهاً بنابليون وتحدياً له ، فما وافت الساعة الرابعة صباحاً حتى فغرت المدافع الألمانية أفواهها واجتازت الدبابات ، التخوم وطفقت أرسال اللوفت ڤافه Luftwaffe ترود في سماء أكرانيا والقريم ولتوانيا وهي تمطر شآبيب الموت والدمار . فلما بلغت الساعة منتصف السادسة دعا جراف (كونت) فون شولنبرج سفير ألمانيا لدى موسكو مفوض الشؤون الخارجية الرفيق مولوتوف ليدلي اليه بأن دور روسيا قد أتى . وهذه هي الحرب الخاطفة Blitzkrieg .

وبلغت سرعة الغزاة أول الأمر حدًّا أدهش عالماً تعوَّد أن يدهش من خوارق أعمالهم واصطنع الألمـان في إذاعة انتصاراتهم أسلوباً شعريـًا خياليـًا أشبه بالملاحم الأغريقية وصرَّح الـكثيرون من رجال النازي بأن تدويخ روسيا لن يستغرق أكثر من أسبوعين ، أو ثلاثة أسابيع . ثم أعلنت الدعاوة الألمانية أن عدد القتلى والأسرى من البلاشفة قد ناهز الملايين وأن الجيش الأحمر قد تفانى وأن السلاح الجوي الأحمر قد أصبح لا وجود له .

وقد جرى في حسبان هتلر أن حربه للاتحاد السوفييتي ستجلب تحت لوائه جماعات المهدئين Appeaser من أبناء البلدان الديمقراطية جميعاً ، وكأنما هو تاجر ماهر يلف سلعه بأوراق مكتوب عليها « الحرب الصليبية على الشيوعية » آملاً أن يكون لهذه الـكلمة السحرية من الأثر ما يفقد الناس آلام المخمصة والسخرة والإرهاق ويحجب عن أبصارهم الاختلاسات المتكررة وأسلاك معسكرات الاعتقال ومدافع الجستابو الرشاشة ، ولـكن ساحر برشتسجادن لوَّح بعصاه هذه المرة وتمتم بألفاظه السحرية فلم يخرج من برنيطته ولا أرنب واحد .

وقد أثار شن تلك الحرب الغادرة شعوب البلقان على ألمانيا فأعلنت بلغاريا أنها لا تقاتل الاتحـاد السوفييتي وأنشأت شعوب يوجوسلافيا ثلاث جمهوريات سوفييتية تشُـن الحرب على الألمـان وصنيعتهم الجديد ميخايلوفتش وتجليهم عن البلاد قرية قرية ، واحتجَّ جوليو مانيو رئيس حزب الفلاحين في رومانيا على استمرار الرومانيين في القتال وراء الدنيستر معلناً أنه يرى في ذلك دلالة على أنهم ليسوا إلاَّ مخالب قطط تلتقط الكستناء للألمان ، وأبت الشعوب المحتلة أن تسلم طوعاً ما عندها من معادنَ وحاجٍ الى الألمان وعمد عمالها الى التخريب ونسف المناجم والمصانع والقطارات متشجعين بمقاومة الجيش الأحمر .

الجيش الاحمر يكتسح أعداءه

لقد انتصب أمام الطغيان الهتلري في هذه المرة شعب من نوع آخر ، شعبٌ ذو مِرَّة (عزيمة) يعرف ما يريد ويفعل ما يريد ، شعبٌ لم يتردَّد ولم يهنُ ولم تذهب نفسه شعاعاً حين هبط عليه بالمهابط شياطين الموت الذين كانوا في أوربا الغربيـة ينشرون الذعر والهلع حيثما هبطوا ، ولم تتهافت أعصابه وهنا حين انقضَّت عليه طائرات ستوكا حتى كانت لتكاد تمس رؤوس أبنائه ، شعبٌ لم تجدِ معه الأسلحـة النفسية التي أرهقت الفرَنسيين من طبول تُقرع وأناشيدَ للنصر ترتفع بها العقائر على حين تُرنِّق فوقهم الطائرات الضخمة مساقطة عليهم قنابر صافرة .

أجل ، تقهقر البلاشفة رَدَحاً من الدهر ، حتى تمَّ تجنيد الشعب الذي يحوي عُشر سكان الأرض في سدس مساحتها ، ولـكن هذا التقهقر على خلاف ما شاهدنا في البُلدان الأخرى كان خُـطة لا هزيمة . ولم يضَـنّ البلاشفة بأية تضحية تجول بخلد انسان ، فنقلوا — وهم يتقهقرون — الى المؤخرة كل ما استطاعوا نقله من آلات وعتاد ودمروا كل ما لم يستطيعوا نقله . على أنهم لم يتخلوا عن قطعـة من الأرض قبل أن يغطوا ثراها بأشلاء جنود الألمان ودباباتهم . وقد استغلوا تهوّر النازيين وإسرافهم في الأرواح والعتـاد فأنزلوا بهم خسائر فادحة . وقد كان إسراف النازيين في غرب أوربا ضرباً من الاقتصـاد يبلّـغهم المراكز

الحيوية وييسر لهم القضاء على المدافعين أما الاتحاد السوفييتي فقد ضاعف الناتسيون إسرافهم مثنى وثُلاث دون أن يتيسر لهم إضعاف الروح المعنوية في البلاشفة . وهكذا دفعوا في ما افتتحوه من الأراضي السوفييتية ثمناً باهظاً من الجند والعتاد والروح المعنوية ، أصبح معه ذلك الافتتاح انتحاراً لا انتصاراً .

وسرعان ما انبثقت الدبابات السوفييتية من تحت الأرض كأنما قد جلبها سحر ساحر ، وبدأت البلاغات الناتسية تشكو ظهور « جيوش جديدة وعتاد جديد » . وتحطمت على صخرة المقاومة الصّلدة أوامرُ التقدم مهما يكن من ثمن ، ولم تغنهم الفرق الجديدة الفتيّة يستبدلون بها الفرق القديمة الممزقة حيناً بعد آخر . وأخذ البلاشفة يكيلون لهم لطمة بلطمة ليست هذه حرباً خاطفة بل هي حرب إبادة طويلة الأمد . لقد ماتت الحرب الخاطفة وقبرت في ثلوج الاتحاد السوفييتي .

***

وانكفأ الناتسيون يهبطون بعد أن تسنّموا الذّروة من الانتصار ، وتفانى أملهم في الظفر السريع وأخذوا ينزفون قواهم على حين ما فتىء عدوهم الجبار يزداد قوة على قوة ، فقد أراقوا ما عندهم من البترول حيث أرادوا الحصول على البترول . ودمّر البلاشفة لهم حقول الزيت الرومانية ومعامل تكريرها في بلويشتى دون أن يُرووا ظمأ دباباتهم من آبار باكو . وهبطت منتجات الصناعة الحربية في ألمانيا سنة ١٩٤١ بمقدار ٢٠ الى ٣٠ في المائة مما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وهبط إنتاج الفحم ١٠ الى ١٥ في المائة والصلب ١٥ الى ٢٠ في المائة . ولم يزل الهبوط يزداد سرعة حتى أوهك أن ينفد ما ادخر هتلر للحرب من مواد ، فأصبحت دروع الطائرات الألمانية عارية من النيكل ، بل إن أهم أجزاء آلاتها قد أصبحت خالية منه ، ولم يستطع الفيرر أن يحصل على المعادن الناقصة التي يحتاج اليها — من (الخردة) كما كان القيصر يفعل في الحرب العالمية الاولى ، إذ أن ألمانيا كانت قد استنفدت خردتها قبل الحرب . أما مزارع أكرانيا الخصبة فقد وجدها مهجورة من الفلاحين خالية من المواشي والآلات التي سبقتهم نحو الشرق فكان ما أقلته القُطُر الى مطاحن ألمانيا من القمح أقل مما أقلته الى مستشفياتها من الجرحى .

وهكذا خاب فأل هتلر وأخطأ حسابه في كل ناحية ، حربيًا وسياسيًا واجتماعيًا ونفسيًا ، وكان خطؤه عظيماً عظم التأهب السوفييتي لسحق هجومه . وقد قال في خطاب له في قصر الألعاب الرياضية في ٣ اكتوبر يعتذر من كثرة الموتى « لقد أخطأنا خطأ واحداً ، هو أننا لم نعلم مدى جبروت التأهب الروسي لكفاح ألمانيا »

المراجع

1 — '. T. Murphy : Russia on the march

2 — D. N. Pritt : Light on Moscow

3 — Victor Gollancy : Russia and ourselves

4 — Barbara Ward : Russian foreign policy

5 — Lucien Zacharoff : "We made a mistake"...

6 — Reginald Bishop : Russia's enemies in Britain.

7 — Maurice Edelman : How Russia prepared

8 — Gaetano Salvemini : Italian fascsism

9 — Illustrierte Geschichet des Bürgerkrieges in Russland 1917 - 1921

10 — جريدة صوت الشعب (البيروتية) تعليقها على السياسة الخارجية في سنة ١٩٣٩

11 — برقيات الصحف المصرية اليومية

فهرس الكتاب